10 me Année No. 455

Lundi - 23 - 3 - 1942

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Littéraire Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الإدارة
دار الرسالة بشارع السلطان حسين
رقم ٨١ — عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

بدل الاشتراك عن سنة
٦٠ في مصر والسودان
٨٠ في الأقطار العربية
١٠٠ في سائر الممالك الأخرى
١٢٠ في العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد

الإعلانات
يتفق عليها مع الإدارة

العـــدد ٤٥٥ « القاهرة في يوم الإثنين ٦ ربيع أول سنة ١٣٦١ — الموافق ٢٣ مارس سنة ١٩٤٢ » السنة العاشرة

الفهـــــرس

صفحة
٣٤١ الربيع في غير مكانه ... . . : الأستاذ عباس محمود العقاد ...
٣٤٤ صلوات فكر في محاريب الطبيعة : الأستاذ عبد المنعم خلاف ...
٣٤٦ شروق العقل ... . : الدكتور زكي مبارك ... ...
٣٥٠ حاجتنا إلى معهد أنتولوجي بجامعة فؤاد الأول ... ... } الأستاذ محمد جلال عبد الحميد
٣٥٣ ابن خرداذبة ... ... : الأستاذ كوركيس عواد
٣٥٦ أستراليا ... ... : الأستاذ أبو الفتوح عطيفة ...
٣٥٩ المصريون المحدثون : شمائلهم وعاداتهم ... ... } المستشرق « إدورد وليم لين » بقلم الأستاذ عدلى طاهر نور
٣٦٢ حيلة جديدة ... [قصيدة] : الأستاذ أحمد أحمد العجمى
٣٦٢ ليتنا ... ... ! « : الأديب عبد العليم عيسى ..
٣٦٣ في الأدب التركي ... . . : ....
٣٦٣ إلى الدكتور زكي مبارك ... : الأستاذ أحمد رضوان حامد
٣٦٣ آثار من أولية الشعر ... : الأستاذ عبد العظيم على قناوى
٣٦٤ ما قول الأستاذ لطفي جمعة ؟ : الأديب كمال الدين لشأت ...
٣٦٥ النغم الضائع . [قصة] : بقلم الأديب حسين محمود البشبيشى

الربيع في غير مكانه !

للأستاذ عباس محمود العقاد

الربيع . الربيع . الربيع !

وكررها ما شئت ، فما أنت ببالغ من تكرارها بعض ما تراه من اسم الربيع مرقوماً بشتى الحروف ، في كل صفحة من صفحات الكون

كل بستان يقول لك الربيع ، وكل شجرة في بستان تقول لك الربيع ، وكل طائرة غادية أو رائحة بين الزهر والشجر تقول لك الربيع ... !

وتقول لك الربيع كل عين لامعة ، وكل وجفة متوهجة ، وكل قلب خافق ، وكل حياة نامية

الربيع في كل مكان

الربيع في مكانه وفي غير مكانه . ويا رب ربيع في غير مكانه يلقاك بمعنيين لا بمعنى واحد ، كما يروعك الحسن غير منتظر ، أشد من روعته إياك وأنت في انتظاره ، وعلى عهدك باختباره في مكانه بين الضفاف والأشجار

وفي غير مكانه أين ؟ أين نلقاه في أوانه ، بعيداً من مكانه ؟

سلني وسل من واعدوه مثلي في مختلف المواعد ، فيا طول ما رأيته حيث لا يراه الناس ! ويا طول ما ذكرته حيث لا يذكره

الناس ! ويا طول ما حييته حيث لا يحييه أحد ، ولا يأنس إليه في المقبرة ، في السجن ، في الصحراء ، في وحشة النفوس التي تستعير الموت من المقبرة والضيق من السجن والظمأ من الصحراء

هنالك الربيع في خير أوانه ؛ وهنالك الربيع في غير مكانه ؛

وهنالك الربيع الذي لا أحب أن أنساه حين يذكر الناس كل ربيع!

* * *

كانت الشجرة باسقة ناضرة ، وكانت العصافير تملأها قبل مطلع الشمس وبعد مغيبها ، ثم لا تزال تغنيها طوال النهار شادية صافرة ، لاهية سادرة ، متلاقية زوجين زوجين أو متعاشرة ، ظاهرة بالفرار أو متظاهرة ، ثم متلاقية في الصبيحة الباكرة ، متلاقية في قيلولة الهاجرة ، متلاقية في الظلمة الساترة

وكانت الشجرة على قبر فتاة

وكان القبر بين مئات القبور

وكنت أراها من حجرة قريبة إلى القبور في كل شيء : في الجيرة ، وفي المرض الذي أقعدني فيها ، وفي الوحشة التي لا يشع خلالها رجاء

وكنا في صحراء الإمام

انظر إلى عصافيرها . عصافير المقبرة على رفات الحسناء

انظر إليها لا ترى فرقاً بينها وبين عصافير روضة على ضفاف نهر في يوم عيد

أتلومها أتحمدها ؟

نعم ، لك أن تلومها كما قلت يومئذ ألومها :

مفردة الطير بين الحفـ ... ـر سواء لديك جميع الشجر
أفوق القبور غناء الغرا ... م ، وطيب المقام وصفو السمر؟
دعيها لناعبة في الدجى ... وناعق سوء رهيب الخبر
ولوذي بأيك يفيء الهوى ... إلى ظله ويطيل النظر
فذاك بصفوك أولى مقا ... م ، وأولى بهذا المقام العبر

ولك أن تحمدها كما قلت يومئذ أحمدها :

مفردة الطير أنت الأسدُّ ... وأنت الأجدُّ ، وأنت الأبر
عرفت الحياة فحييتها ... بحيث نما غصنها وازدهر
ولم تعرفي الموت بين القبو ... ر ، وماذا من الموت تحت الحجر؟
ولا موت حيث يضوع الشذى ... ويسري الندى ، وتعيش الذكر
فغنِّي فما الأرض إلا حيا ... ة تمر وأخرى تلي في الأثر

وكنت أقولها يومئذ ولا أزال أقولها الآن وأنا أعجب لنا حين ننعى على الموت قسوته ، وننسى أن الحياة تواجهه بأقسى من تلك القسوة ، حينما ظفرت ببقاياه

متى حفلت الحياة بالقبور ؟

متى هزئ الموت بالأحياء بعض ما تهزأ بالموت زهرة ضاحكة تنمو من جوف قبر ، وعصفورة عاشقة على مدفن حسناء ، وتغريدة تسمعها من الروضة في يوم مهرجان كما تسمعها من صحراء الإمام في جنازة عزيز ؟

تلك قسوة الحياة . وأقسى ما فيها أنها بحق ، وأنها لا تخجل ولا تداري ولا تحتال في الأمر موضعاً لخجل أو مداراة .

* * *

وفي السجن !

والربيع في السجن يعرف أوانه ولا يعرف مكانه

يعرف أوانه فلا يخطئه في ورقة على فرع شجرة ، ولا ينساه في قشاشة منسية على الأرض يلمحها عصفور عابر فيهبط إليها ، ليتخذ منها أثاثاً لمهاد غرامه ، في موسم الغرام

أهذا أوان الربيع ؟

نعم هذا أوانه ، وهذه أنباؤه ، وهذه سيماؤه ! ! !

أو هذا مكان الربيع ؟

لقد كان ذلك بين الأسوار وراء القضبان ، وكل مكان فهو منزل للربيع الطلق غير هذا المكان ، في حراسة سجان !

ولكننا تلقيناه فيه ، وابتسمنا له ، وعرفناه غير متنكر ولا متغير ، ومقتحماً علينا المكان أحب اقتحام .

* * *

ثم في الصحراء

والصحراء والسجن نقيضان ، ولكنهما في غرابة الربيع يلتقيان .

زهرة يفرقها من الزهرة التي بعدها مائة ميل ، وكأنها من الأنس بنضرتها في جمهرة من الرياض والآجام . لا تلتفت إلى وحدتها لأنها في حجر أمها وبعين أبيها ، وهل لها من أم غير الحياة ومن أب غير الربيع ؟

ولكننا نحن الذين نراها بأعيننا فنخلق لها الوحشة من نفوسنا ، ونفرق بين مكانها وأوانها ، ولا ضير عليها ولا عليهما من افتراق

* * *

يذكرنا ربيع المقبرة وربيع السجن وربيع الصحراء أن ربيع العام كله فى غير مكانه وإن جاء فى إبانه

ربيع يقال له موسم الحياة والرجاء وأنباء الموت فيه أشيع الأنباء !

ربيع يتلاقى فيه محبان هنا ومحبان هناك ، ثم يتلاقى فيه مائة ألف من الأعداء ومائة ألف من الأعداء ، يتقاذفون الموت فى البر والبحر والفضاء !

ربيع يترقبه طلاب الموت ، ويفزع منه طلاب البقاء !

ربيع أقرب منه إلى مكانه كل ربيع فى مقبرة ، وكل ربيع فى سجن ، وكل ربيع فى صحراء

هذا ربيع العـــام !

السلامة كل ما يُسأل منه ، وقد كان بعض سؤله النعمة والنعيم

* * *

وكنت أسمعها تغرد ، وأراها تطفر ، وأرثى لهـا وهى فى قفصها ، وأحبها وهى لا تباليه ، كأنها نقلت الحرية من فضاء الله إلى صدرها الصغير بين أفراخها الصغار

تلك عصفورة الكنار عند صديق من محبى الطير فى الأقفاص ، وإن كنت لا أحبها فى غير فضاء الله

بل رأيتها تولد ، ورأيتها تزقو ، ورأيتها تترقى يوماً بعد يوم من الزقاء فى طلب الحب ، إلى التغريد فى طلب الحُب ، إلى التغريد فى الغبطة بالبنين

ثم نماها إلىّ الصديق ذات صباح ، فكان لنعيها تعقيب طال بيننا كما يطول التعقيب فى هذه الأيام على أنباء الغزوات

فليعجب من هذا من يستبعد الفارق بين النبأين ، كما يستبعد الفارق بين عصفورة واحدة ومائة ألف إنسان

إن كان هذا هو القياس فالفارق جد بعيد ، بل هو فارق لا يجوز القياس فيه

لكن القياس غير هذا وأصدق وأكرم من هذا القياس بين موت فيه معناه ، وموت آخر فيه معناه ؛ وقد يتقابل المعنيان فى كفتى ميزان ، إذا تجاوزت من مات وما مات وانتهيت إلى ما فى الموت من سر واعتبار

فى مستهل الربيع ماتت عصفورة الكنار التى نقلت إلينا قبساً من الربيع فى زمهرير الشتاء

ماتت وهى فى أول أمومة لها تستقبل ربيعها الثانى بخمسة من الأفراخ الضعاف

وماتت شهيدة هؤلاء الضعاف الطالبين ، لأنها جاعت لتطعمهم والحب عندها كثير ، ونسيت أن تأكل لنفسها لتذكر تلك الأفواه المفتوحة كأنها فتحت لتأكل كل شيء ... وماتت لأنها تعطى الحياة ولا تأخذ منها بعض ما تعطيه

ماتت شهيدة الفداء ، وماتت ووراءها تدبير حكيم أحكمته العناية فى مئات الألوف من السنين

وعند ما تموت عصفورة فيترجم لنا موتها ذلك التدبير ، ويقدر لنا ذلك التقدير ، لا عجب أن يقترن موتها بموت الجحافل وأبناء الجحافل ، وهو فى قوانين الوجود كفاء ذلك القانون

لا عجب أن نحسب على ربيع العام هذه الشهيدة وأولئك الشهداء ، فكلهم فى سر الخليقة سواء

عباس محمود العقاد

صـــــلوات فــكر
فى محاريب الطبيعة
للأســـتاذ عبد المنعم خلاف

[كتب كثير من هذه الخواطر فى « الرستمية » بالعراق العزيز ، فهى مهـداة إليه]

وما رأيت أرضاً يعنف فيها الشعور بالحياة كالعراق !

فهناك طلاسم مخبوءة فى التراب والأعشاب للسحر وتفتح القلب للحياة والحب ...

وهناك تاريخ البشرية الأولى يحرك فى نفس الحى الحس بالزمان ...

وهناك سحر هاروت وماروت لا يزال يجدد شباب قلب القارة العجوز : آسيا ...

حيث يفيض الماء دم الحياة غزيراً مدراراً ..

وحيث يفور النفط نهر اللهب غزيراً مدراراً ...

فينبت من بينهما إنسان ذو جذوة بيضاء وأخرى حمراء ! فى جماجم عاتية عمرت الحياة بالنسك والفتك فى حياة الهدى وحياة الضلال ...

وهناك ملتقى الكيد وحرب الأجناس والأجيال فى تلك الأرض السوداء ، على هامش الصحراء الصفراء ، وبين هضبة إيران وجبال كردستان تلتق الأنواع من إنسانها وحيوانها وحشراتها ... ففيها من كل جنس شاخص أو طلل . . هبت على قلبي فيها ريح الشمال من صحارى القرغيز وسهوب سيبريا ، وريح الجنوب، من خضم تحمل مواعينه الطيوب والأفاويه ، والسحر الأسود من القارة السوداء وجزر الهند ؛ وريح النار من أرض الفرس ؛ وريح الموت من الهند أرض الاستغراق وفناء الأجساد وجنون الأرواح بالأسرار ، وانسلاخ القوى وتجسيم الخيال !

إنها طلعة جبارة من طلعات الطبيعة تطلق أشباحاً ترقص فى الأوهام والظنون ...

فلا عجب إذا وعيت بعد هذا كله من أسرار الحياة ما جعل فكرى دائم الصلاة !

---

١١ — أبجد (*)

أبداً أكرر دروس الطفولة فأتهجى أسماء الأشياء حتى لا أنسى ...

أبداً أحترم الطبيعة البدائية كما يحترم الأطفال كبار القوم ..

أبداً أسير إلى الأمام وعينى إلى الوراء ، حتى لا أضيّع طريق العودة إلى أحضان أبي ...

لى ذهن سحرى يَزْوِى لى الأيام الماضية ويحضرها لأعيش فيها فترات ثم يردها إلى مكانها من التاريخ ...

أسير وفى يدى مهدى الذى ولدت فيه ، حتى أصل إلى اللحد الموعود لأراهما معاً يتقابلان ...

أحتفظ دائماً بوَجهَى أمى وأبى حين رأيتهما لأول مرة بين الشباب والكهولة من عمرهما ... ولن أنسى هاتين الصورتين حتى أرى وجه الموت ... فأقابل بين الثلاثة ؟

ولدت فى غيبوبة ... فهل أموت فى غيبوبة ؟

١٢ — حماية الطفولة

الطفولة هى موضع عناية الله . . . ألا ترونه يضم كل جنين أو صغير ناشئ بحنان ويشق له بيده طريق الحياة !

فواضع يده اليقظة الرفيقة هى البراعم المتفتحة والمناطق النامية تلفها بأقمطة وأربطة ، وترصد حولها حرّاساً من الأشواك والمرارة والمواد قاتلة المكروبات والحشرات

إنها تستكثر من البويضات وجراثيم الحياة وتخرجه بالملايين التى تعجز قوى الإفناء عن إتلافها جميعاً لتسلم الحياة وتدوم الأنواع.

إنها تحب ذلك العالم الجميل البرىء الذى لم يقبح ولم يتدنس ولم تحتله بعدُ قوى الشر .

إنهم يدخلون باسمين للنور والطعام واللعب يسألون عن كل شيء . الشمس لهم والمرعى والليل ، ولهم السعى والعمل والحب فى منطقة الخديعة من قلوب الأمهات والآباء

حُملان وجراء وأشبال وأفراخ وبراعمُ وأطفال . أولئك هم الأصدقاء السائرون معاً فى وَكْبَة من مواكب الحياة ...

١٣ — الدوام

هل رأيت الدنيا تخلو يوماً من أشيائها ؟

أبداً ترى عصافير متحدة فى الشكل والصوت تطفر على الأشجار والأعالى ...

وأبداً ترى هذه الدار مأهولة بالشمس والقمر والنجوم . . . نجوم السماء ونجوم الأرض ...

الأرض دائماً تقرع بالأقدام ، والصبح دائماً معه صوت الطير ...

(*) أنظر الأعداد ٣٠٣ ، ٣٠٥ ، ٣٠٩

أبداً فيك يا دنيا شباب مُتوَّجون بالطُّرة السوداء، والغرَّة المشرقة، والشفاه الباسمة ...

أبداً يلعب الأطفال في أمكنة اللعب ويتصايحون عرابيدَ مِهاراً في الملاعب ...

أزور دائماً أمكنة طفولتي فأجدها عامرة بالأطفال الذين احتلوا مكاني أنا ورفاق صباي ...

أتراني أرى دوام هذا الكون المظيم ... هذا الضياء الناصع الفياض، هذا الليل الرائع الجبار ... هذه الرياح العاتية الجارفة الزَّخّارة ... هذا العُباب الهدّار الرّجّاف الرَّجْراج ... هذه الصحراء الطامسة الفاغرة ... هذه الجبال الراسية الشامخة ... هذه السماء الرحبة البعيدة المدى ... ثم أرى ذاتي إزاء هذه العوالم ضئيلاً ضعيفاً فانياً ثم لا أصرخ في وجوهها صرخة تدوى بها هبواتُ الرياح، وتتلقفها الجبال، وتذهب أصداؤها في الأعماق والأغوار ... صرخة تتمثل فيها كل معاني إحساسي بفنائي وضعفي وضياعي بينها من غير سند ولا عاصم أعتزُّ به وأَطُول وأَصُولُ؟!

لماذا تبقين وأنا أذهب؟ وتتجددين وأنا أَبْلَى؟ وتبصرين هذا الجمال الدائم وأنا أعمى وأطمس؟ وتسمعين أصوات هذه الحياة العجيبة وضجتها وأنا أَصَمُّ؟

لماذا تُتَوَّجين دائماً بلآلئ الصباح وذهب الضحى ورصائع النجوم، وتتجملين بأصباغ فاتنة من وَهَج الظهيرة وطَفَلِ الأصيل وشفق المساء، وتتعطرين بأنفاس الأزهار ... وأنا أجرد من حَلْيِي وغُرَّتي وطُرَّتي، وتَنْصلُ أصباغي، وتتفكك أعضائي، وتحبس روحي عن هذا الوجود ... حتى أنتهي إلى أن أنظر الكون من مَحْجِرَيْ جمجمة يسكنها الفراغ والظلام، وتسكن هي في أعماق حفرة ضيقة تضحك لظلامها بفكَّين مجرودَين مقبوحين حتى تمسها يد البلى فتتركها رُفاتاً سحيقاً بعد أن تَمَلَّ الظلام ويملَّها؟!

لماذا تَمْنحين ما أُحرَم وأنت عديمة القلوب والعيون، وأنا ذو القلب الراقص دائماً على خفق الأدواح وصفق الرياح، الجائع دائماً إلى الأحاسيس والمعاني المعلنة والباطنة، وذو العين الرائدة الباحثة عن الحركات والألوان وسمات الوجوه وأشكال الأجسام!

لماذا يا عدالة السموات والأرض؟ أفي الحق ذلك؟

كلا! فليست العدالة هي التي قسمت هذا وقالت به ... وإنما هي العقول السطحية اليائسة القاصرة قالت به ...

ولكن عدالة الأكوان ومنطق القلوب – أوعية الحياة – هما يقولان ببقاء هذه النفس لهذا الكون ونقلها إلى جمال أكمل وأسمى وأدوم، وعالم من القدرة والتسلط أكثر هوْلاً وفنًّا وأعظم، وعالم من الانطلاق والتحرر أرحب وأنعم!

والموت الموعد!

١٤ – تهافت الغايات إلا غاية واحدة

وإني لأهتف حين تهبُّ على قلبي نسماتٌ خفية تثير فيه حساسيته بالدوام والخلود واللانهائية ... ثم أرى أمامي كل غايات الحياة الأرضية متهافتةً أمام العقل لا تقنعُ عشاق الخلود والآملين فيه:

هل لي يا سيد الوجود شيء في ملكوتك الجميل الخالد يبقى وأحوزه لنفسي بعد فنائي ورحيلي من هنا؟

أم أنا ذاهب من كل هذا الجمال ومعاني الآمال كَتِبْنةٍ ذهبت مع الريح، أو ورقة أحرقت في موقد، أو حشرة عمياء صغيرة سحقت تحت قدم ...؟

وهل يكون نصيبي من ملكوتك هذا الرحب الواسع الغنيّ بمعاني الحياة مكاناً مبهماً في جوف الظلمات وأطواء العدم وسكون الجمود، حيث لا إحساس بهذه الحياة ولا بما وراءها ... وحيث لا أمكنة لأشياء إذ لا أشياء إلا تلك الصور المطموسة التي ينقلها الخيال الإنساني من عالمها هنا إلى هناك، حين عجز أن يتخيل الفراغ والعماء؟!

إنني يا سيدي لا أصدق، لأن ضميري قطعة من ضمير الوجود كله ...!

وكيف أصدق أن ما في عيني من الصور، وما في سمعي من النغم، وما في قلبي من أحاسيس، وما في فكري من قضايا الكون والفساد وأحلام الكمال، تذهب هكذا كأن لم تكن!

إنهم أطفال أولئك الذين يقصر خيالهم عن إدراك المدى الحيوي الباقي للانسان وراء هذه الحياة الدنيا، كما يقصر خيال الطفولة عن إدراك عوالم الرجولة وبلوغ الأشُدّ في دنيا الأجسام ...

فكل غايات الحياة الأرضية متهافتة فانيـة أمام العقل، لا عمر لها إلا خطفات زمنية، ولا وزن لها تجاه الأبد الكبير ... والهادفون إليها فانون، إلا إذا دارت حول غاية واحدة: هي الله والبقاء معه ...

عبد المنعم خلاف

بين آدم وحواء

شروق العقل

للدكتور زكي مبارك

أفاق آدم من غفوته عند قدوم حواء ، وكان المنتظر أن يتلقاها بالضم والتقبيل ، ولكنها عاجلته بضربة قاصمة هي تذكيره بشجرة التين ، فنام قلبه بعد صفاء ، وعاد فانطوى على نفسه كما يصنع الأرقم في ليالي الشتاء .

— آدم ، مالي أراك شارد اللب ؟

— من الفرح بقدومك بعد طول الغياب !

— أنظر ، أنظر ، ألا ترى أني صرت أنضر من أزهار التفاح ؟

— وأحلى من أثمار التفاح !

— إذاً ما هذا الجمود الذي يغالب قواك ؟

— ما أنا بغافل عن واجب الترحيب بهذا الجسم الفينان ، الجسم البديع الذي أضلني وهداني ، ولكني تذكرت « صلاة الشكر » وهي صلاة لا تتم بلا اعتكاف ، فإن رأيت أن تتركيني وحدي لحظة أو لحظتين ...

— انتهاب الجمال هو في ذاته شكران لواهب الجمال

— أبغض ما تكون المرأة حين تتفلسف ، فاتركيني لصلاتي ، وإلا مزجت الكوثر بدمك النجيع . إنصرفي ولا ترجعي إلا إن سمعت ندائي

« وخافت حواء عواقب هذه الغضبة فولت هاربة لا تلوي على شيء وتركت آدم للصلاة ، وهي ترجو أن تكون صلاته أقصر من الأمل في سيادة العدل »

فماذا وقع بعد انصراف حواء ؟

هل صلى آدم ؟ وكيف تصح له صلاة وقلبه يفور ، وعقله يثور ؟

أخذ آدم يفكر فيما انتهى إليه أمره وأمر حواء ، فقد كانا غاية في الطاعة والخضوع ، فما الذي جد حتى أصبحا غاية في التمرد والعصيان ؟

أيرجع السبب إلى وسوسة إبليس ؟

ولكن إبليس كان يوسوس منذ أزمان ولم يصل إلى شيء ، فكيف وصل بعد اليأس ؟

هنا أدرك آدم أن السر يرجع إلى النمو الملحوظ في جسده وجسد حواء ، وأيقن أن اضطرام الأجسام يصنع ما تعجز عنه ألوف الأباليس ... وهل تنجح النزوات الخارجية إن لم تصادف قبولاً من الأهواء الداخلية ؟

وزاد في اقتناع آدم بهذه النظرية ما كان يلاحظ على فصائل الطير والحيوان ؛ فقد كان يشاهد أنها لينة رفيقة في أول عهدها بالوجود ، ثم تغلب عليها القسوة والشراسة حين تصير إلى النضج والاستحصاد !

وإذن ؟ وإذن يكون تطور الفاعلية الجسدية مصدر التطور في الفاعلية العقلية !

ثم ؟

ثم يكون في كل تطور جديد إبليس جديد

وعلى هذا يكون لحواء في طغيانها عذر مقبول

وما ذنب حواء ؟ ما ذنبها وقد استحالت إلى دوافع ونوازع وأهواء ؟

نظرت مرة إلى نهر الكوثر في لحظة سكون فرأت خيال وجهها الجميل وقد استدار في هالة من السحر والفتون ، فقدرت أن سيكون لها تاريخ ، وعجبت من أن يتعامى آدم عن حسنها الفتان ، كأنها تجهل أن آدم صار ألعوبة في زمامها المخبول

وخلاصة ما قرأت في كتاب شيث أن آدم لا يقيم وزناً لنزغات إبليس ، وإنما يرى أن الجسد هو الأصل ، وأن ألفافه مكونة من أباليس ، وأن ثمر الشجرة المحرمة قد يزيده فورة إلى فورة ، وجوحاً إلى جوح

وهل غاب عن آدم أن ثمرات التين سريعة العطب والفساد ؟ لقد تأملها مرة ومرتين ومرات ، فعرف أنها معرضة لأخطر الجرائم ، وأدرك أن سمها قد يورث ما في الأجسام من السم المكنون فتستشري وتهتاج(١)

وإذا كان آدم عجز عن رياضة حواء وهي صحيحة ، فكيف يروضها وهي مريضة ؟

(١) تحرير هذه الفكرة أن الانحراف في الطبائع هو الأصل في انحراف الأخلاق

خطرت لآدم هذه الخواطر وهو يبحث عن السر فى تمرد حواء ... لقد كانت طفلة وديعة ، فكيف صارت امرأة خبيثة ؟ تطوُّر الجسد صنع بها ما صنع ، فأمست وهى أخطر من الحية النضناض ، ولن يكون إبليس بأمكر من حواء ، بعد أن تبلغ مبلغ النساء

وكان آدم يعرف أنه يحمل الجانب الأخطر من المسئولية ؛ فهو السبب الأصيل فى تمرّد حواء ، وبفضل شبابه وصياله ذاقت أفاويق الضلال

والذى ينتظر أن تهدأ المرأة وأمام عينيها رجل ، شبيه بالذى ينتظر أن تهدأ النار وقد أُقحمت أكداس الحلفاء ... لقد كان آدم يطرد حواء ثم تعود إليه لتأنس بضربه الوجيع ، كما ترجع الفراشة إلى أقباس اللهيب

المرأة تدرك ما فى الرجل من المعانى ، ولو كان من الخاملين ، فكيف تصدّ عنه وهو من الأنبياء ؟

كانت حواء سمعت أن الله لم يخلق آدم إلا بعد أن دار بينه وبين الملائكة حوار طريف ، فكيف يفوتها أن تنتفع بشهرته ، وهى تعرف أن الشهرة مغنم عظيم ، وإن اعتمدت على أضاليل وأباطيل ؟

وهل تقوم الشهرة بلا أصل ؟

إن آدم رجل ، والرجولة من أعظم الأرزاق ، فما زهدها فيه وهو من أمثلة العزة والجبروت ؟ وهل تنسى أنه صرعها فوق شط الكوثر ألوف المرات ؟

القوة هى سحر آدم ، والضعف هو سر حواء ، والوجود يقوم على أسس كثيرة ولكنها ترجع إلى أساسين هما القوة والضعف ؛ والعشق العارم لا يقع إلا بين عاشقين مختلفين فى العرض والطول ، والدمامة والجمال ، والقسوة واللين

ومع هذا كان آدم هو البادئ بإعلان شوقه إلى حواء ، وكانت حواء تنكر شوقها إليه . وتفسير ذلك سهل : فأسرع الناس إلى الاعتراف بالحق هم الأقوياء

وزعم شيث بن عرعانوس أن آدم قال وهو يحاور تلك اللعوب :

أما والله لو تجدين وجدى لطِرت إلىَّ خالعة العذار(١)

(١) كذلك ورد هذا البيت فى كتاب شيث ، ورواية الأغانى تخالف هذه الرواية فى الكلمة الأولى من الشطر الثانى

وقد فات آدم أن حواء ضعيفة ، والضعف يتسلح بالرياء

والقول الفصل أن آدم قد انتهى إلى حقيقة لا تحتاج إلى برهان ، وهى صدور الأهواء عن الأجساد قبل صدورها عن الأرواح ، لأن الجسد أداة الروح ، ولأنه يحفظ قواها كما تحفظ الكأس سر الرحيق

ثم ماذا ؟ ثم التفت آدم إلى وحى النبوة فقال :

« لم أكن أدرك تكاليف النبوة حين أراد الله أن أكون من الأنبياء ، فقد فهمت أول الأمر أن النبوّة لا تصح إلا لمن يقف موقف الراعى من الرعية ، وليس فى الجنة جنود وأتباع يحتاجون إلى من ينظر فى شؤونهم بعين الدبّر الحصيف ... ثم عرفت أن الله جعلنى نبياً لحكمة سامية : فحواء شخص فرد ، ولكنها مؤلّفة من شخوص يعدّون بالألوف ، بفضل ما يصطرع فى جسدها وروحها ، وقلبها وعقلها ، من أشتات النوازع والأحاسيس ... هى شخص فرد ، ولكن أوقاتى تضيق عن الطب لأهواء ذلك الشخص الفرد ، فكيف أصنع لو أضيف إليها أفراد يحملون ما تحمل من أوقار النزق والطيش والجموح ؟ إنها تتعبنى فى الحوار ، ولو كاد أوقن بأن كل كلمة من كلماتها ترمز إلى شىء ، فهذه الكلمة عتاب ، وتلك الكلمة اتهام ، وهذا اللفظ وعد ، وذاك اللفظ إغراء ، وذلك اللفظ تجريح ... ومن عجيب الأمر فى سياسة هذه الشقية أن خطبها لا يهون إلا حين تنطق ، مع أن المفهوم أن نطقها فى أغلب أحواله وعيد مخيف ... أخطر ما تكون حواء حين تصمت ، فعند ذلك أدرك أنها تضمر أشياء ، وأنا أخاف أشد الخوف من النذير المسموت ... لو أن الله جعلنى نبياً فى أمة كثيرة العدد لخفّ الخطبُ وهان ، فقد كنت أستطيع الاعتذار بالعجز عن رعاية الألوف من الرجال والنساء ، ولكن الله جعلنى نبيًّا على مخلوق تحار فى رياضته العقول ... من أى طريق أصل إلى اكتناه قلب حواء ؟ وكيف أؤدى الواجب فى تهذيب تلك الشقية ؟ وهل نجحتُ فى التخلق بأخلاق النبوة وأنا أروض تلك الفرس الشَّموس ؟ الله يعلم أنى لم أقصِّر ولم أفرّط ، ولكن ما هذا البلاء الذى أعانيه ؟ واجب النبى أن يَهدِى الجميع فى حدود ما يطيق ؛ وقد يتلطف الله به حين يعجز عن هداية من يحب ، لأنه يعلم أن الأحباب هم فى الحقيقة أعداء ؛ وهل يعرف مَقاتل المحب غير الحبيب ؟ كان يكفى أن أعجز

عن هداية حواء فأسلمها إلى الشياطين ، ولـكن البلاء كل البلاء أن هذه المرأة لا تكتفى بنجاتها من يدى ، وإنما تريد أن تضلنى فآكل معها الثمر الممنوع ، وبهذا يصبح الهادى وهو من الضالين ! إن نجحت حواء فى اختتالى واختلابى فسأكون عبرة لمن يأتى بعدى من الأنبياء . . . وهل أضمن حفظ مكانتى فى التاريخ ؟ إنْ تطاول الزمان فسيقول قوم إن آدم شخصية خرافية أريدَ بها تصوير انهزام الرجال أمام النساء . وهل يؤذينى أن يقال ذلك ؟ أنا أول ضحية بشرية إن هزمتنى حواء ، ومن حق من يجيئون بعدى أن يرتابوا فى حقيقتى التاريخية . فالرجل الذى يعجز عن كبح المرأة لا يستحق شرف الوجود ... وأنا أعيذ من تصل إليهم هذه الأخبار أن يسيئوا الظن بجدهم المظلوم ، فليس عندى أوامر صريحة أتولى بها زجر حواء ، ولست أعرف المصير إن عاقبتها بالقتل ، فما لى صديق غير هذا المخلوق ، والصديق الواحد جدير بالاستبقاء وإن تردّى بالعيوب . من أخصب تخيّر ، وأنا فى الصداقة مُجدب لا مخصب . فهل ألام إذا استجزت المعصية طاعةً لمحبوب لا أجد غيره حين يضيع ؟ سأقرب الشجرة رعاية لحواء ، وليصنع الله بنا ما يشاء . وماذا يريد الله ! أيريد أن نشاركه فى السموّ المطلَق ؟ أيريد أن نتنزه كما تنزه عن جميع الشُبهات ؟ أين نحن من الله وهو قوة أزلية لا يعتريها نقص ولا خمود ؟ بأمر الله سأعصى الله فأقرب الشجرة مع حواء . سأعصيه بأمره وإن كان نهانى ، فهو يعلم أن المخلوق المؤلف من أحلام وأهواء لا يعظم عليه العصيان »(1)

وانخرط آدم فى البكاء ، فلم يوقظه غير حواء

— آدم ، آدم ، ماذا بك ؟

— حواء ؟

— نعم ، حواء ، هل فرغت من صلاتك ؟

— أى صلاة ؟

— صلاة الشكر ، ألم تحدثنى أنك من أجلها أردت الاعتكاف

— لقد صليت صلاة لا تخطر لك فى بال

— هل صليت كما تصلى الملائـكة ؟

— أعظم مما يصلّون

— وكيف ؟

— ناقشتُ الله !

— من ناقشَ الله هَـلَك

— قولى هذا لنفسك ، يا حواء !

— أحب أن أعرف كيف تـكون المجادلات من ضروب الصلوات ؟

— حين تـكون شاهداً على شروق العقل

— لا أفهم ما تريد أن تقول

— أريد أن أقول : إن الله يكره لعباده أن يلوذوا بالصمت والجمود

— ومعنى هذا أنه يحب أن نتكلم ونتحرك فى كل وقت ؟

— إذا أشار العقل

— وما العقل ؟

— أن تسكتى إلى الأبد الأبيد !

— أتريد أن تتمتع بنعمة الـكلام وحدك ؟

— لأنى أشقى بنعمة العقل وحدى ، ولأن الله لن يسأل غير « آدم » عن نزق « حواء »

— وما رأيك فى شجرة التين ؟

— المرأة حين تولع بشيء لا تنفك تدور حوله ولو نهاها عنه الأنبياء

— وأنت نبيٌّ يا « آدم » ؟ لم يبق إلا هذا الزعم الطريف !

— إن صوت الله قرع أذنيك ولم تنتهى ، فهل تسمعين صوت النبيّ المسكين ؟ !

— ومتى نهانى الله عن الشجرة ؟

— كيف نسيت يا حواء أننا سمعنا ألف مرة هاتفاً يصيح :

« لا تقربا هذه الشجرة فتـكونا من الظالمين »

— هو نداء موجه إليك

(1) هذه الوثيقة التاريخية تشهد بأن آدم ظل مدة طويلة فى أسر القلق والخوف ، ومنها نعرف أنه كان فى عراك دائم بين عقله وهواه ، وأن حواء لم تفتنه إلا بعد أن بذل فى جهادها فوق ما يطيق

— إليّ وحدي ؟ وكيف ؟

— لأنك رجل !

— وإذن يكون من حقى أن أقرب الشجرة وحدى

— لن تذوق ثمرها إلا من يدىّ

— وهل أذوق من يديك غير العلقم والصاب ؟

— إسمع يا آدم ، إسمع : يظهر أنك أغلف القلب ، وأنك فى احتياج إلى من يزيل الغشاوة عن عينيك . ما هذا التمرد على الله ؟ وما هذا العصيان ؟ مزيتك أنك رجل ، ورجولة آدم رهينة بشهادة حواء ، ولن أعترف لك بشىء إلا إن عصيت وغويت

— ويقول الله : وعصى آدم ربّه فغوى ؟

— ومن أنت حتى تصل إلى أن ينالك الله بالغمز والتجريح ؟

— إسكتى ، يا حواء !

— لن أسكت قبل أن أزلزل قلبك جزاء بما احتكرت من دعوى الفضيلة والشرف والنبل ؛ كأن ساوىَّ معك رذيلة وضعة وإسفاف . أنت تصور نفسك دائماً بصورة المظلوم وتنسى أنك فى أغلب أحوالك من الظالمين

— ومتى ظلمتك ، يا حواء ؟

— حين تناسيت فضلى عليك ، فأنا أضرم أهواءك لتشعر بعنفوان الرجولة الحق ، وستموت حسيًّا ومعنويًّا يوم أعجز عن إغوائك . فيومذاك تعرف يا جاهل أن طيش حواء ليس بالغنم القليل

— كفى . كفى !

— لا ، لا ، لن أتركك أو تعترف بفضلى عليك

— أمِنَ الفضل أن تزيّنى المعصية ؟

— ما زيّنت لك شيئاً غير جميل

— وشجرة التين ؟

— ما تهمنى شجرة التين بالذات فسأحاول هدايتك إن امتنعت عن شجرة الجميز ، لأملك تقل قلبك من مكان إلى مكان ، ولأطمئن إلى أنك بعافية تجعلك فى طليعة الفحول ، فما ينجو من كيد المرأة إلا العِنّين أو المجبوب

— أنت ياحواء شقية !

— وأنت يا آدم جهول !

ومرت لحظات صمت فيها آدم صمت الأموات ، ثم ثاب إلى صحوه فأيقن أن نجاته من كيد حواء أمل عزيز المنال ... ولكنه جمع قواه ليصدها عن الغواية بأسلوب لم يفكر فيه من قبل . فهل يصل إلى ما يريد ؟

« للحديث شجون » زكى مبارك

حاجتنا إلى معهد أثنولوجى

بجامعة فؤاد الأول

للأستاذ محمد جلال عبد الحميد

(بقية ما نشر فى العدد الماضى)

٢ — كيف نبتدئ فى تكوين المعهد الأثنولوجى ؟

قد يبدو غريباً أن نطالب الحكومة بإنشاء مؤسسة علمية جديدة بجامعة فؤاد الأول فى هذا الوقت وخصوصاً وقد أصبح من المتعذر استدعاء العلماء الإخصائيين من أوربا وغيرها ، وأنه أصبح من الصعب أيضاً توفير المال اللازم لتنفيذ مثل هذا المشروع ، ولكنا إذا توسعنا فى التفكير والبحث عن أقرب الطرق وأسهلها مع توخينا البساطة فى التنفيذ ظهر لنا الأمر على عكس ما كنا نتوهم

من حيث هيئة التدريس وتكوين أعضائها فإن من السهل انتداب بعض الأساتذة من كليات جامعة فؤاد الأول وغيرها من المؤسسات العلمية بمصر . ففى كلية العلوم مثلاً يمكن استدعاء أستاذى البيولوجيا والفزيولوجيا لمعالجة هاتين المادتين بالمعهد[1] ؛ وكذلك يمكن انتداب أستاذ علم التشريح من كلية الطب لمعالجة مسائل الجنس البشرى . ومن السهل أيضاً أن يقوم أساتذة علم الاجتماع والتاريخ والجغرافيا واللغات لمعالجة المسائل الاجتماعية وأثر البيئة الجغرافية فى تحديد النشاط المادى والروحى للجماعات البشرية المحدودة المدنية ؛ ثم البحث عن معالم مدنياتها وآثار ما قبل التاريخ فى الجهات التى تسكنها

فكما نشاهد فيما بعد أن المواد الرئيسية التى يتكون منها علم الأثنولوجيا هى ضمن اختصاص جماعة من العلماء لهم معاملهم وتجاربهم وأوضاع بحوثهم المستقلة . ولما كان الغرض الأول[1] من معالجة تلك المواد بمعهد الأثنولوجيا هو رسم صورة عامة للتكوين الاجتماعى والأسس الدينية والأوضاع الإقتصادية ، وتحديد الميزات الرئيسية للأجناس البشرية المحدودة المدنية ؛ فليس من الصعب أن نبدأ من الآن فنعمل على إنشاء معهد للبحوث الأثنولوجية وأن تكون هيئة التدريس فيه من الأساتذة المصريين والأجانب الموجودين بمصر الآن

وأما مشكلة التجارب الأتنولوجية وكيفية تهيئة المعامل اللازمة لها ، فليس فيها تعقيد أو صعوبة لا يمكن تخطيها ، لأنه من السهل استدعاء بعض الأطفال والأولاد من المدارس الإلزامية والابتدائية ، وأما الرجال والنساء ، فيؤتى بهم من بعض وحدات الجيش والمستشفيات والسجون لوصف وأخذ أقيسة مختلفة لأعضائهم وتحليل الدم عندهم لتحديد مجموعاته المختلفة . ويمكن أيضاً إجراء مثل هذه التجارب على الهياكل البشرية التى يمكن الحصول عليها من كلية الطب

ومن ضمن التجارب الأتنولوجية أيضاً القيام ببعض زيارات لمتحف الأتنولوجيا والمتاحف الأخرى الموجودة بمصر للوقوف على كيفية ترتيب المعروضات فيها ، ثم القيام بوصف وتحليل بعض هذه المعروضات لمعرفة طريقة تكوينها واستخلاص الأسس الفنية والغاية التى أنشئت من أجلها

٣ — منهج الدراسة[2]

أولا — الدراسة النظرية

تتناول هذه الدراسة نشأة الإنسان ومميزاته الرئيسية والمؤثرات

(١) انظر منهج الدراسة بمعهد الأتنولوجيا ص ٩

(١) تلك هى المرحلة الأولى من حياة معهد الأتنولوجيا ؛ وأما المرحلة الثانية وهى التوسع فى دراسة أحد فروع الأتنولوجيا أو بعضها لاستخلاص بعض القوانين التى تتمين بها أوضاع الحياة الاجتماعية لدى تلك الأمم فيترك البحث فى أمر تحديدها الآن حتى تتهيأ الفرصة لتخطى المرحلة الأولى والتى تنتهى بتكوين وتهيئة جماعة من الباحثين يطلق عليهم (الصفافين الاجتماعيين) وهم الذين يقومون بجمع المعلومات والوثائق والأشياء بين الجماعات البشرية المختلفة مع القدرة على ترتيبها وتصنيفها بطريقة علمية منظمة

(٢) يعمل بهذا المنهج الآن بمعهد الأتنولوجيا بجامعة باريس ولكنا رأينا إدخال بعض تعديلات وزيادات علمية نظراً لتطور علم الأتنولوجيا وتعدد بحوثه

الخارجية المحيطة به واتصال ذلك بنظام تطوره العام ، وأبواب هذه الدراسة هي :

(ا) نشأة الانسان ومميزاته

١ — باليونتولوجيا Paléontologie

نستعين بهذه الدراسة في معرفة آثار الحياة في المخلوقات البسيطة التركيب وغيرها والتي وجدت في عصور جيولوجية قديمة سبقت عهد ظهور الإنسان مع العمل على تحديد المناطق الطبيعية لتلك الحيوانات وتعيين اتجاه هجرتها في تلك العصور ، ثم تعيين المناطق الأولى التي ظهر فيها الإنسان

٢ — بيولوجيا ... Biologie :

وعند الإلمام ببعض مبادئ علم الحياة نستطيع أن نعرف التطورات والتغيرات التي تنشأ داخل جسم الإنسان وتعتريه في حياته ، ثم العمل على تحديد العوامل الوراثية وأثرها في انتقال المميزات الرئيسية للجنس البشري

٣ — فزيولوجيا Physiologie :

ونقصد من هذه الدراسة الوقوف على كيفية ومدى تأثير البيئة الجغرافية وطرق التغذية ووسائل العمل في اختلاف الأجناس البشرية .

٤ — أنتروبولوجيا Anthropologie

يتناول هذا العلم دراسة الصفات الرئيسية لجسم الإنسان وتحديد المميزات المختلفة للأجناس البشرية كلها مع الإلمام التام بتاريخ نشأة كل منها .

(ب) مؤثرات خارجية

١ — البيئة الجغرافية والبشرية

بعد معرفة العناصر المختلفة للبيئة الجغرافية من حيث الطقس ودرجة خصوبة الأرض والتغيرات الناخية يمكن تحديد تأثير تلك العوامل الطبيعية في التكوين الاجتماعي والنشاط المادي والروحي للأمم المختلفة .

٢ — اتصال الأجناس والمدنيات

إذا تغلبت أمة على أمة أو طغت مدنية على مدنية أخرى فقد يؤثر ذلك في حجم الأمة المغلوبة إما بزيادة عدد أفرادها أو بنقص هذا العدد . وللمدنية الغالبة الحق والقدرة على توجيه رأي الجماعة والتعبير عن شعورها وتحديد طرق معيشتها . وعلى هذا فمن الضروري أن نهتم كثيراً بدراسة تأثير الدنيات بعضها في بعض ، ومعرفة النتائج المادية والمعنوية للاستعمار البشري والاتصال المدني . ويكمل هذه الدراسة بحوث يقصد منها تحديد مناطق المدنيات وعصورها واتجاهاتها ومميزاتها الرئيسية .

(ج) النشاط الانساني

١ — علم النفس Psychologie

يقصد من هذه الدراسة الإلمام بمعرفة الظواهر الأولى لنشأة الحياة الفكرية والإحساس والشعور وطرق التعبير عنهما لدى الإنسان ومقارنة تلك الظواهر بما تشابهها لدى الحيوانات الراقية

٢ — علم اللغة Linguistique

ونستعين بهذه الدراسة في معرفة القوانين العامة لاختلاف اللغات واللهجات والإلمام بالطرق العلمية لجمع عناصرها ومعالمها بين الجماعات المختلفة

٣ — علم الاجتماع Sociologie

يقصد من هذه الدراسة معرفة الأسس والتعاريف العامة للظواهر الاجتماعية والدينية والاقتصادية

٤ — أتنوجرافية Ethnographie

وغاية علم الإتنوجرافيا دراسة الطرق المختلفة التي يجب اتباعها في جمع معالم ولم شتات المدنيات لدى الأمم المحدودة المدنية

٥ — علم آثار ما قبل التاريخ Préhistoire

نبغي من وراء هذه الدراسة معرفة المميزات الأساسية للانسان الأول ومعرفة آثاره المادية والروحية والعمل على جمعها وترتيبها حسب مواطنها وعصورها المختلفة

ثانياً — الدراسة العملية

١ — تجارب أنثروبولوجية

يقوم الطلبة بإجراء تجارب مختلفة ، كوصف جسم الإنسان وأخذ أقيسة لأعضائه ، وأن تجرى هذه التجارب على الرجال والنساء والأولاد والأطفال ؛ وذلك في بيئات وطبقات اجتماعية مختلفة . هذا وأن تجرى نفس التجارب على الهياكل البشرية والحيوانية

٢ — تجارب بسيكولوجية

يتمرن الطلبة على استعمال الآلات الحديثة الخاصة بقياس قوة النظر وسرعة الإحساس ، مع الإلمام بمعرفة الطرق العلمية المستعملة في قياس قوة الذاكرة

٣ — تجارب اثنوجرافية

يقوم الطلبة بعدة زيارات لمتحف الأنثولوجيا والمتاحف الأخرى بالقاهرة وغيرها للوقوف على كيفية ترتيب وضع المعروضات فيها ووسائل حفظها والعناية بها . وأن يتدرب الطلبة أيضاً على وصف هذه الأشياء ومقارنتها بنظائرها

٤ — رحلات

يقوم الطلبة برحلات وزيارات لكثير من القرى المصرية والسودانية لدراسة نظام تكوين القرية ووصف الحياة فيها ويقوم الطلبة أيضاً بزيارة المناطق التي اكتشفت فيها آثار ما قبل التاريخ

وقبل أن أنتهي من الحديث عن منهج الدراسة بمعهد البحوث الأنثولوجية أريد أن ألفت النظر إلى أنه يشترط في طالب الالتحاق به أن يكون من خريجي كليات الآداب والحقوق والتجارة والطب وأن تكون مدة الدراسة فيه سنتين

هذا وإننا نرى أن متحف الأنثولوجيا يكون جزءاً متمماً للمعهد فيجب أن يبدأ في تكوينه مع المعهد

يظهر لنا مما تقدم أن بوادي النيل كثيراً من الجماعات البشرية تختلف عن بعضها من حيث جنسها ونوع تكوينها الاجتماعي ودرجة مدنيتها، وأن البحث عن معالم تلك المدنيات لم يتسع ميدانه ولم تتنوع أبوابه بعد ، فيجب أن نشرع في إنشاء معهد ومتحف الأنثولوجيا لنتابع بذلك تقدماً مطرداً في نهضتنا العلمية الحديثة والتي تبغي لها انسجاماً في جميع نواحيها . وإذا نظرنا إلى ماضي نهضتنا على الأخص هذه وجدنا أن في عنقنا ديناً نحو العلم الذي أصبح اليوم يزهق من زفرات أوربا المحرقة والتي شردت العلماء في فيافي الأرض بعد أن تفككت أواصر مجتمعاتهم وانقلبت أوضاع معاملهم ، وأن شعورنا بهذا الواجب يحتم علينا أن ننهض ونضحي ونهيئ للعلم وطناً كما فعل السابقون من أبناء هذا الوادي

محمد مهول عبد الحميد

٢ ـ ابن خُرْدَاذبه

للأستاذ كوركيس عواد

يؤخذ مما ورد فى بعض المراجع ـ أن ابن خرداذبه هـذا ـ كان وزيراً ، فقد ذكر البَشَّارى المقدسى[1] فى عرض كلامه على « سدّ ذى القرنين » ما هذا نصه :

« قرأتُ فى كتاب ابن خرداذبه[2] وغيره فى قصة هذا السد على نسق واحد ، واللفظ والإسناد لابن خرداذبه ، لأنه كان وزير الخليفة ، وأقدر على ودائع علوم خزانة أمير المؤمنين . . . »

ويؤسفنا أنه لم يُشِر إلى اسم ذلك الخليفة الذى وُزِّرَ له ، والمرَّجح عندنا أنه كان « المعتمد »

وقد بحثنا فيما بين أيدينا من تواريخ الدولة العباسية ، والمصنَّفات الباحثة فى أخبار الوزراء خاصة ؛ فلم نجد بين هاتيك المدوَّنات مَن ذكر أن ابن خرداذبه كان وزيراً لخليفة من الخلفاء . والذى نذهب إليه أنه كان وزيراً بالإسم فقط ، وهذا أمر معروف عند متتبعى أحوال الإدارة فى تلك الأزمنة التى كثرت فيها الوظائف ، واصطنعت فيها الألقاب !

ومهما يكن من أمر ، ففى العبارة التى نقلناها عن البشارى ، خير دليل على عِظَم منزلة ابن خرداذبه عند الخليفة ، وعلى اعتماد ذاك الخليفة عليه فى أمور خزانته الحافلة

وقد ذكر ابن خرداذبه نفسه بنفسه ، فى أوائل كتابه « المسالك والممالك » ، ولمح إلى مكانه من الخليفة بقوله[3] :

« هذا كتاب فيه صفة الأرض ، وبِنْية الخلق عليها ، وقبلة أهل كل بلد والممالك والمسالك إلى نواحى الأرض ، تأليف أبى القاسم عبيد الله بن عبد الله بن خُرداذبه ، مولى أمير المؤمنين »

والظاهر أن « أمير المؤمنين » هذا ، قد كان المعتمد أيضاً ، على ما يُعرف من صلة وثيقة بينه وبين هذا الخليفة

(١) أحسن التقاسيم (ص ٣٦٢)
(٢) تجد الخبر بكامله فى كتاب المسالك والممالك لابن خرداذبة (ص ١٦٢ — ١٧٠)
(٣) المسالك والممالك (ص ٤)

ولعُبَيد الله ابن خرداذبه أخبار تفرقت فى شعر بعض معاصريه فيها ما يسير إلى أصله « الفارسى » ، وما يشيد بذكر عائلته العريقة فى المجد ، وما يدل على سمو منزلته فى الدولة

روى أبو بكر الصولى فى كلامه على الشاعر أبى الطيب محمد ابن عبد الله بن أحمد بن يوسف أنه قال : « وكتبت إلى ابن خرداذبه ، وقد دام المطر « بُسْرَّ مَنْ رَأَى » وتأخرتُ عنه :

لعمرى لئن سرّ الحيا فى مواطن ... لقد ساءنى أن عاقنى عن لقائكا
وقد كنتُ مشغوفاً بذاك أريده ... فحالَ قضاء الله من دون ذلكا
فَصِفْ لى فَدَتْكَ النفس أمراً يسرّنى ... وأحمد فيه الله من حسن حالكا
وحال أخينا أحْسَنَ الله صنعه ... وحال فتاكَ منعماً فى كتابكا[1] »

فهذا الشاعر ، على ما يبـدو من الأبيات المتقدمة ، قد كان صديقاً حميماً لابن خرداذبة . ونظيره فى هذه الصداقة كان البحترى الشاعر المشهور المتوفى سنة ٢٨٤ هـ ؛ فقد وقفنا فى ديوان شعره على قطع له فيه . من ذلك ما قاله فى عبدون بن مخلد[2] وقد كتب بها إلى ابن خرداذبه[3] :

أبلغْ لديك عُبيد الله مألُكةً[4] ... وما بدَارِ عُبيْدِ الله من بُعدِ
أضحتْ بقطرَبل[5] والدَّيْرُ[6] حَلَّتُه ... ومَا يُجَاوِرُ بيتَ النارِ ذا العُمُدِ
لم تدر ما بى وما قد كان بَعدَكَ من ... نفاستى لك فى عبدون أو حسدى
أغرُّ ، أحسَبُ نُعْمَاهُ الجليلةَ من ... ذخائرى لِصرُوفِ الدَّهرِ أو عُدَدِى
إذا مضى اليوم لا نلقاه فيه مضى ... سرورنا وترَقَّبنا[7] مجىء غدِ

(١) كتاب الأوراق [قسم أخبار الشعراء] للصولى (ص ٢٤٩)
(٢) جاء ذكره فى حوادث سنة ٢٧٢ من تاريخ الطبرى (السلسلة الثالثة ، ص ٢١٠٩)
(٣) ديوان البحترى (١ : ٢١٠ طبع الجوائب فى الآستانة سنة ١٣٠٠ هـ ، أو ص ٣٢٥ — ٣٢٦ طبع بيروت سنة ١٩٠٠)
(٤) المألكة : الرسالة .
(٥) قطربل من مواطن اللهو والأنس ، بين بغداد وسامراء ، وهى مشهورة بخمرها . ضبطها ياقوت بالضم ثم السكون ثم فتح الراء وباء موحدة مشددة مضمومة ولام ، وقال إنه روى فى ضبطها : بفتح أوله وطائه وأما الباء فمشددة مضمومة فى الروايتين
(٦) فى طبعة بيروت : والدار والوجه ما فى أعلاه
(٧) فى طبعة الآستانة : وترقتنا ، وهو تحريف

إن فات فى السبت أن نزدار(١) سيدنا
فلا تفتنا لشىء زورة الأحد

وفى القطعة التالية ، يوجه البحترى الكلام إلى ابن خرداذبه بعد أن خلع عليهما عبدون بن مخلد . وفى هذه إشارة صريحة إلى ما كان من صلة بين عبدون وابن خرداذبه . قال البحترى(٢) :

يا أبا القاسم استجد لنا عبدو ... ن حالاً تمامها فى ضمانه
جمعتنا مودة واجتمعنا ... بعد فى بره وفى إحسانه
قد لبسنا ثيابه وتسايرنا ... نا بتقريظه على حملانه(٣)

وأجزل فائدة من ذلك ، ما قاله البحترى فى مدح عبيد الله ابن خرداذبه ، وذكر صداقته ، وتهنئته بخروجه من علة كان فيها ودونك ذلك :(٤)

إن ترج طول عبيد الله لا تخب
أو ترم فى غرض من سيبه(٥) تصب
لم تلق مثل مساعيه التى اتصلت
وما تقيل(٦) منها عن أب فأب
رأى صليب على الأيام يتبعه
ظرف متى يعترض فى عيشنا يطب
ذاك أخ أفتديه إن يحس أذى
بالنفس مما توقاه وبالنشب(٧)
[إذ(٨) كان(٩) من فارس فى بيت سؤددها
وكنت من طيء(١٠) فى البيت والحسب(١١)
فلم يضرنا(١) تنائى المنصبين وقد
رحنا نسيبين فى خلق(٢) وفى أدب
إذا تشاكلت الأخلاق واقتربت(٣)
دنت مسافة بين العجم والعرب(٤)]
إسلم ولا زلت فى ستر من النوب
وعش حميداً على الأيام والحقب
وليهنك البرء مما كنت تألمه
والأجر فى عقب ذاك الشكو والوصب
أوحشت ، مذ غبت قوماً كنت أنسهم
إذا شهدتهم فاشهد ولا تغب
إلا تكن ملكاً تثنى تحيته
فإنك ابن ملوك سادة نجب
وإن قصدت ابتناء البرء من سقم
فقد أرقت دماً يشفى من الكلب

وغنى عن القول أن ابن خرداذبه ، وهو الفارسى الأصل ، كان يعرف اللغة الفارسية ، ولا ندرى ما إذا كانت له كتابات أو تآليف بهذه اللغة . وإنما وجدناه فى كتابه المسالك والممالك يستشهد فى موطنين(٥) بشعر فارسى

أما سنة وفاته ، فلسنا على علم ثابت منها . وقد وجدنا الحاج خليفة(٦) يقول إن ابن خرداذبه توفى فى حدود سنة ٣٠٠(٧) للهجرة ، ولعل هذا صحيح ، غير أننا لم نقف فى كتاب قديم على ما يدعم هذا القول

وقد قلنا إن ابن خرداذبة نادم المعتمد وخص به . ومعروف أن المعتمد ولد سنة ٢٢٩ ، وبويع له بالخلافة سنة ٢٥٦ ، وتوفى سنة ٢٧٩ هـ ، فيكون ابن خرداذبة قد بلغ أوج عزه خلال هذه الفترة المنحصرة بين ٢٥٦ و ٢٧٩ للهجرة .

(١) نزدار : نزور
(٢) ديوان البحترى (١ : ٢١١ طبع الجوائب ، أو ص ٣٢٦ طبع بيروت)
(٣) الحملان : ما يحمل عليه من الدواب فى الهبة خاصة
(٤) ديوان البحترى (٢ : ١٠ — ٢١ الجوائب ، ص ٤١٥ — ٤١٦ بيروت)
(٥) السيب : العطاء أو المال . الجمع : سيوب
(٦) يقال : تقيل أباه ، بمعنى أشبهه
(٧) النشب : المال
(٨) الأبيات الثلاثة بين المربعين رواها الحصرى القيروانى فى زهر الآداب (الطبعة الثانية ٣ : ١٨٢ للدكتور زكى مبارك)
(٩) فى زهر الآداب : إن كنت
(١٠) فى زهر الآداب من محتدى
(١١) فى زهر الآداب : والنسب

(١) فى زهر الآداب : فلن يضر
(٢) فى زهر الآداب : فى علم
(٣) فى زهر الآداب : إذا تقاربت الآداب والتأمت
(٤) فى زهر الآداب : بين العرب والعجم ، وهو مخالف للقافية
(٥) المسالك والممالك (ص ٢٦ و ١١٨)
(٦) كشف الظنون (٢ : ١٠١ طبعة فلوجل)
(٧) فى دائرة معارف القرن العشرين لمحمد فريد وجدي (٣ : ٦٩٣) أنه توفى فى حدود سنة ٣٠٠٠ هـ ، وهو خطأ مطبعى ظاهر

وذكرنا ما كان من صداقة بينه وبين البحترى المتوفى سنة ٢٨٤ هـ . إلا أن المراجع التى بأيدينا لا تعيننا على معرفة ما إذا كان ابن خرداذبة قد توفى قبل البحترى أو بعده .

وما قلناه فى عُبَيد الله ، نقوله فى سائر بنى خرداذبة ، فإننا نجهل سنى وفياتهم ، فضلاً عن أن علمنا بسائر أخبارهم وشؤونهم ما زال مقتضباً يسيراً . وحسبك أن تعلم أن الترجمة الوحيدة لعبيد الله ابن خرداذبة ، هى التى كتبها ابن النديم فى فهرسته ، وهى أقل من خمسة أسطر !

٥ — مؤلفات ابن خرداذبة

سبقت الإشارة إلى بعض تصانيف ابن خرداذبة ، التى خلدت اسمه على كر العصور . وهذه المؤلفات قد تزيد على العشرة ، ذكر ابن النديم[١] ثمانية منها ، ضاع أغلبها فيما ضاع من تراث الأقدمين . وإليك الآن أسماءها وما نعلمه من أمرها :

١ — كتاب أدب السماع .

٢ — كتاب جمهرة أنساب الفرس والنوافل .

٣ — كتاب المسالك والممالك : ضمنه إحصاء جباية المملكة العباسية فى أواسط المائة الثالثة للهجرة[٢] . وهو من خيرة المراجع القديمة فى معرفة الطرق والمسالك ، وتعيين المسافة بالفراسخ أو بالأميال بين مكان ومكان ، على ما كان معروفاً عند القوم فى ذلك الزمان . ولا مراء ، إن ابن خرداذبة كان الرجل الثقة فى مثل هذه البيانات ، لأنه تولى أعمال البريد . ومن المعلوم أنه « لا غنًى بصاحب هذا الديوان أن يكون معه منه ما لا يحتاج فى الرجوع فيه إلى غيره ، وما إن سأله عنه الخليفة وقت الحاجة إلى شخوصه وإنفاذ جيش يهمه أمره ، وغير ذلك مما تدعو الضرورة إلى علم الطرق بسببه ، وُجد عتيداً عنده ومضبوطاً قِبَله ، ولم يحتج إلى تكلف عمله والمسئلة عنه[٣] »

ويبدو لنا واضحاً أن ابن خرداذبة لم يؤلف هذا الكتاب إلا بطلب من شخص كبير لم يصرح باسمه ولعله أحد الأمراء . قال فى أول كتابه ، وفيه ما يوضح غرضه من هذا السفر ما إليك نصه بالحرف الواحد[٤] :

« أطال الله تعالى بقاءك يا ابن السادة الأخيار والأئمة الأبرار منار الدين وخيرة الله من الخلق أجمعين ، وأدام الله لك السعادة ، وكثّر لك الزيادة من جميع الخيرات ، ووفقك لسبيل الصالحات ، وجعلك ممن ارتضى أفعاله وزين أحواله . فهمتُ الذى سألتَ ، أفهمك الله جميع الخيرات وأسعدك إلى المات ، وأفلج فى الدارين سهمك ، ووفر فيهما قسمك ، من رسم إيضاح مسالك الأرض وممالكها ، وصفتها وبعدها وقربها وعامرها وغامرها ، والمسير بين ذلك منها من مفاوزها وأقاصيها ورسوم طرقها وطسوقها[١] على ما رسمه المتقدمون منها . فوجدت « بطلميوس » قد أبان الحدود وأوضح الحجة فى صفتها بلغة أعجمية ، فنقلتها عن لغته باللغة الصحيحة لتقف عليها ، وقد رسمت ، رُسم لك فوز الحق فى جميع مأمولك ومطالبك ، ما رجوت أن يكون محيطاً بمطلوبك وآتياً على إرادتك كالشاهد لما نأى والخبر بما قرب ، وصنعته كتاباً افتتحته بالحمد لله ذى العزة المنيعة والنعمة السابغة ، الذى أنشأ الخلق على ما أراد ، وبين سبيل الحق للعباد ، لم تشركه فى خلقه الآراء المتوهمة ولا ظنون الرؤيات ، تعالى الله عما يشركون ، وصلى الله على محمد نبيه ، وعلى الأخيار من عترته وسلم كثيراً » اهـ

والمعروف فى وقتنا أن لهذا الكتاب ثلاث نسخ خطية ، اثنتين منهما فى خزانة أكسفرد وفيهما خروم

وكان المستشرق باربيه دى مينار Barbier de Meynard أول من نشر هذا الكتاب ونقله إلى الفرنسية (المجلة الآسيوية الفرنسية ، السلسلة ٦ ، المجلد ٥ ، سنة ١٨٦٥ ، ص٢٢٧ وما بعدها ثم عُنى بتجديد طبعه العلامة دى غويه de goeje فنشره مترجماً إلى الفرنسية أيضاً (الخزانة الجغرافية العربية ، ج ٦ ، ليدن ١٨٨٩ فى ١٨٣ صفحة للمتن ، و١٤٤ للترجمة . ويليه فى المجلد نفسه نبذٌ من « كتاب الخراج وصنعة الكتابة » لقدامة بن جعفر الكاتب البغدادى ، المتوفى سنة ٣١٠ أو ٣٢٠هـ ، صفحة ١٨٤ — ٢٦٦) وجديرةٌ بالعناية تلك التحقيقات الثمينة والتعليقات الدقيقة والفهارس المتقنة التى تحلى بها هذا الكتاب . وقد اشتملت المقدمة التى كتبها الناشر دى غويه بالفرنسية على فوائد جزيلة ، جاءت فى ٢٣ صفحة . وصفوة القول أن هذه الطبعة نفيسة ، فيها

(١) الفهرست (فلوجل ١٤٩ ، ٢١٣ مصر)

(٢) نشر جرجى زيدان ، خلاصة ذلك الاحصاء فى تاريخ التمدن الاسلامى (٢ : ٥٩ — ٦١)

(٣) كتاب الخراج وصنعة الكتابة لقدامة بن جعفر (ص ١٨٥)

(٤) كتاب المسالك والممالك (ص ٣)

(١) الطسوق ، واحدها الطسق (بالفتح فالسكون) ، ما يوضع من الخراج المقرر على الجربان (جمع الجريب ، وهو على ما فى التاج ١ : ١٧٩ ثلاثة آلاف وستمائة ذراع) . أو هو شبه ضريبة معلومة ، والكلمة من الدخيل (أنظر تاج العروس ٦ : ٤٢٣)

ما يحمل القارئ على الاطمئنان إلى سلامتها من الشوائب

وقد نشر دى غويه أيضاً ، قطعة من هذا الكتاب فى مجموع بلدانىّ له[1] ، كما نشر بلاشر Blachère قطعاً أخرى منه فى مجموع بلدانى له[2]

ومن الدراسات الثمينة التى حظى بها هذا السِفْر ، ما كتبه الرحالة المستشرق موزيل Alois Musil فى كتابه « الفرات الأوسط »[3] فقد عمد إلى المسافات والأبعاد التى ذكرها ابن خرداذبه فى الطريق من بغداد إلى الرَّقة ، وانتقد ما اعتورها من أوهام . وجدير بمن يطالع المسالك والممالك أن يرجع إلى ما كتبه موزيل فى هذا الشأن لتتم به الفائدة .

(يتبع — بغداد) **كوركيس عواد**

(١) De Goeje : Selections From Arabic Geographical Literature. (Leiden, 1907; pp. 16 — 22)

(٢) Blachère : Extraits des Principaux géographes Arabes de Moyen Age. (Beyrouth, 1932; pp. 21 — 32)

(٣) the middle euphrates. (New York, 1927. pp. 248-251)

أســـــتراليا

للأستاذ أبو الفتوح عطيفة

بيت القصيد ، وميدان القتال الجديد ، وما نخال إلا أنها كانت السبب الأول والعامل المهم فى دخول اليابان الحرب الحاضرة ضد بريطانيا العظمى — بعد أن حرم على أبنائها سكنى استراليا —

والآن وبعد أن أجهزت اليابان فى مدى شهرين أو ثلاثة على الجزائر التى تربط هذه القارة بآسيا ، فانها لا شك متقدمة إليها زاحفة عليها : ولسنا ندرى ما ذا ستكون نتيجة الصراع القادم بين الاستراليين واليابانيين ؛ فالاستراليون محاربون بواسل كان لهم القدح المعلى والنصيب الأوفر فى كسب بريطانيا للحرب الماضية ، وفى رد العدوان الإيطالى فى الحرب الحالية عن مصر ؛ وسوف يكون نضالهم عنيفاً من غير شك ، فانهم لن يسلموا بلادهم دون الاستشهاد فى سبيلها ، وهم يدركون الآن أن الساعة التى تفرض عليهم المقاومة الباسلة آتية لا ريب فيها . وقد جاء من سيدنى بتاريخ ٩ فبراير سنة ١٩٤٢ أن الجنرال جوردن بنيت ألقى خطبة فى حفلة أقيمت لاستقباله قال فيها :

« عند ما نقابل اليابانيين فى استراليا — وأنا واثق من أننا سنقابلهم — فانى موقن بأن روح القتال فى الشعب الاسترالى ستسود الموقف وتقودنا إلى النصر . فيجب علينا أن نقذف بهم فى البحر فى كل مكان يحاولون فيه تثبيت أقدامهم . إن محاولة غزو بلادنا تعد مغامرة تكتنفها الأخطار ، ولكننا لم نعد نقلل من قوة العدو كما أننا لن نقلل من قوتنا وقوة حلفائنا »

وسنحاول فى هذا المقال وصف المناطق الشمالية من استراليا التى ستكون أول ميدان للقتال ، ووصف استراليا وصفاً إجمالياً ومقدار ثروتها الزراعية والمعدنية وقدرتها على الإنتاج الصناعى

هذه القارة

أصغر القارات جميعاً وأكبر جزائر العالم . تبلغ مساحتها $\frac{4}{5}$ مساحة أوربا و $\frac{1}{4}$ مساحة أفريقيا و $\frac{1}{6}$ مساحة آسيا ، ويتكون شمالها من سهول شاطئية منخفضة لا يزيد ارتفاعها على ٦٠٠ قدم . وتتدرج فى الارتفاع نحو الداخل . ويمتاز هذا الإقليم بشدة حرارته وغزارة أمطاره فى فصل الصيف الجنوبى (يناير) ، وبجفافه وقلة حرارته نسبياً فى فصل الشتاء الجنوبى (يونيه) . وفى اعتقادنا أن ذلك من حسن حظ الاستراليين ، لأن القتال سيدور فى جو ملائم نوعاً لهم بعد أن ولى فصل الصيف الشديد الحرارة وأقبل الخريف . أما شرق هذه القارة فتوجد به المرتفعات الشرقية ، وهى تتكون من مرتفعات كوينزلند ، وجبال نيوانجلند ، والجبال الزرقاء ، وجبال الألب الاسترالية ؛ تلى هذه المرتفعات السهول الوسطى ، وتتكون من إقليم الآبار الارتوازية العظيم وتبلغ مساحته نصف مليون ميل مربع تقريباً ، وهو أكبر إقليم من نوعه فى العالم ، ومن حوض المرى ودارلنج . وتنصرف مياه شمال هذا الإقليم فى خليج كاربنتاريا . أما فى الوسط فتنصرف فى بحيرات داخلية أهمها بحيرة أير . وتمتاز أمطار هـذا القسم بقلتها وعدم ضمانها ؛ ولذا يطلق عليه « قلب استراليا الميت » The dead heart of Australia أما الجنوب فيجرى به نهر المرى ودارلنج ويطلق عليه « قلب استراليا الحى » The live haert of Australia » . ويلى السهول الوسطى الهضبة وأعظم جهاتها ارتفاعاً أجزاؤها الغربية والشرقية

ثروتها المعدنية والزراعية

هذه القارة من أغنى القارات بمواردها الزراعية ، فهي تزرع مساحات واسعة من القمح ، وتنتج منه مقادير كبيرة تفيض عن حاجتها وتصدرها إلى الخارج . والدقيق الاسترالى مشهور معروف . وفي جنوبها تزرع أشجار الفاكهة من : أعناب وبرتقال وليمون وتفاح ويصنع بها النبيذ . أما شمالها ، فتزرع به مساحات كبيرة من قصب السكر وتزرع كوينزلاند وحدها ما يزيد على ١٥٠٠٠٠ فدان ، وتصدر الزائد عن حاجتها من السكر إلى بريطانيا العظمى

والمراعى باستراليا عظيمة القيمة ، فباستراليا يربى ما يزيد عن المائة مليون رأس من الضأن . وقيمة الصادر من الصوف وحده تزيد على قيمة ما يصدر من محصولاتها جميعاً . وتمتاز كوينزلاند ونيوسوث ويلز بتصدير اللحوم المجففة ومستخرجات الألبان ، حيث تربى بهما الماشية . أما الثروة المعدنية ، فاستراليا غنية بها ، وقد لعب الذهب دوراً هاماً في تاريخها ، فقد كانت قبل اكتشافه منفى للمجرمين ، ولكن بعد كشفه هرعت ألوف من المهاجرين إلى استراليا واستقرت بها ، ونشأت عدة مدن بالقرب من مناجمه مثل بلارات وبندنجو وكاجورى وكلجاردى . ومن أهم المعادن التي تستخرج : الفحم والفضة والرصاص والزنك والقصدير ؛ وتعادل قيمة المستخرج من الفحم قيمة المستخرج من باقي المعادن ، وهي تصدر الفحم الزائد عن حاجتها

ونظراً لتوافر المعادن والمواد الأولية قامت عدة صناعات أهمها دبغ الجلود وصناعة الآلات من الحديد والصلب والمنسوجات الصوفية وصناعة الأثاث والصابون . والاستراليون يعتمدون على مصنوعات بلادهم ويشجعونها ويؤثرونها على المصنوعات المستوردة وإن غلا ثمنها

السكان

هذه القارة رغم ثرائها قليلة السكان ، فإن عددهم لا يزيد على ستة ملايين وثمانمائة ألف . ولعل السبب في ذلك تلك السياسة التي جرت عليها حكومتها من تحريم سكناها على العناصر الملونة وقصرها على العناصر البريطانية أو The White Oustralia Policy فمنعت الصينيين والهنود واليابانيين من دخولها وعملت على حفظها ميراثاً لأبناء العناصر البيض وأحفادهم .

وقد أقلق بال الاستراليين استيلاء اليابانيين عقب الحرب الماضية على جزائر مارشال وكارولين ، إذ اقترب اليابانيون من استراليا ألفي ميل . وزاد في قلقهم أن جهات استراليا الشمالية قليلة السكان لعدم ملاءمة مناخها لسكنى الأوربيين . ودرءاً لهذا الخطر اتفقت الحكومة البريطانية مع حكومة استراليا على تشجيع الهجرة البريطانية إليها عام ١٩٢٥ ، وقد خصصت الحكومة البريطانية لهذا المشروع ٨٣٠٠٠٠٠٠ر٧٠ جنيهاً

أما أكثر جهات استراليا ازدحاماً بالسكان ، فهي السواحل الشرقية والجنوبية ، حيث يسكنها ما يزيد على ٨٠٪ من السكان ولكنهم من أنشط العناصر وأبسلها

والآن اقتربت الساعة ودنا الخطر الياباني من استراليا ، وسيتوقف الفوز في المعركة القادمة على عاملين مهمين : أولهما المساعدات التي يقدمها الحلفاء ولا سيما الولايات المتحدة ؛ والثاني عزيمة الاستراليين أنفسهم ومقدرتهم على كيل الضربات إلى اليابانيين بصورة أقسى وأشد من الضربات التي يكيلها لهم اليابانيون . وهذه هي الروح التي يجب أن يعتصم بها الاستراليون في هذا الصراع وإنا لشمس الغد لمنتظرون

أبو الفتوح عطيفة
مدرس العلوم الاجتماعية
بمدرسة الزقازيق

ما أعتقد وما زلت أعتقد ، بوجود الرأس الشريف فى هذا المشهد . ولكنى ما كنت لأعارض الشيخ لشهرته وسمة علمه .

وانتهى الدرس وخرجت أبكى . فلما جن الليل قمت أدعو الله وأبتهل إليه ولجأت إلى رسوله الكريم (ص) متوسلاً أن أراه فى المنام ليخبرنى بحقيقة الأمر . فرأيتنى أسير إلى المشهد الحسينى . فلما دنوت من القبة أبصرت بها نوراً ساطعاً فدخلت فوجدت أحد الأشراف واقفاً بالباب . فحييته فرد التحية وقال : « سلم على رسول الله » . فأرسلت النظر نحو القبلة فرأيت الرسول (ص) جالساً على عرش وعلى جانبيه وقف رجلان . فرفعت صوتى قائلاً : « الصلاة والسلام عليك يا رسول الله » عدة مرات وأنا أبكى . فسمعته (ص) يقول لى : « ادن يا بنى ، يا محمد » فأخذ الرجل الأول بيدى وقدمنى إلى الرسول (ص) . فحييته فرد التحية وقال : « جزاك الله خيراً على زيارة رأس الحسين يا بنى » . فقلت : « يا رسول الله هل رأس الحسين هنا ؟ » فأجاب : « نعم . إنه هنا » ففارقنى الحزن وفرحت وثبت جنانى وقلت حينئذ : « يا رسول الله سأقص عليك ما أكده شيخى وأستاذى الأمير فى درسه » . وأعدت عليه قول الشيخ . فأطرق (ص) ثم رفع رأسه وقال : « إن النقلة معذورون » . واستيقظت فرحاً سعيداً ولما ينقض الليل بعد . فعيل صبرى بطوله وجعلت أترقب طلوع النهار لأذهب إلى الشيخ فأقص عليه الرؤيا . فلما طلع الفجر أتمت صلاتى وخرجت إلى منزل الشيخ وأخذت أطرق الباب بشدة . فأسرع البواب فزعاً يسأل من الطارق ؛ فلما عرفنى فتح الباب ، ولو كنت غيرى لضربنى . ودخلت الفناء وأخذت أصيح : « سيدى ! يا سيدى ! » فاستيقظ الشيخ صائحاً : « من هذا » ؟ فأجبته : « أنا تلميذك محمد البهائى » فتعجب الشيخ لحضورى فى هذا الوقت وقال : « يا ألله ! ما هذا ؟ ما الخبر » ؟ فقد ظن أن حادثاً عظيماً نزل بالناس . ثم قال : « انتظر حتى أقيم الصلاة » . فظللت واقفاً حتى نزل الشيخ إلى الغرفة السفلى ودعانى إلى الصعود . فصعدت دون أن أحييه أو أقبل يده تحت تأثير الرؤيا ، وإنما قلت : « إن رأس الحسين فى مشهده بمصر ، لا شك فى ذلك » . قال الشيخ : « وما دليلك على ذلك ؟ وإذا كان مستندك صحيحاً فأرنيه » . فقلت : « ليس هذا فى كتاب » . فقال الشيخ : « هل رأيت رؤيا » ؟ فرويت له الرؤيا وعرفته أن الرسول صلى الله عليه وسلم أخبرنى أن الواقف بالباب هو على بن أبى طالب ، والواقف على يمين العرش أبو بكر وعلى يساره عمر بن الخطاب ؛ وأنهم حضروا لزيارة رأس الإمام الحسين » . فوقف الشيخ وأخذ بيدى وقال : « هيا بنا نزور المشهد الحسينى » . فلما دخل القبة قال : « السلام عليك يا ابن بنت رسول الله . آمنت أن رأسك الشريف هنا بعد الرؤيا التى رآها هذا الرجل ، لأن رؤية الرسول فى المنام حقيقية ؛ فقد قال صلى الله عليه وسلم : من رآنى فى المنام فقد رآنى حقاً ، فإن الشيطان لا يتمثل بى » . وحينئذ قال الشيخ : « لقد آمنت أنت وآمنت أنا ولا يمكن أن تكون هذه الأنوار خادعة »

وقد أثار حديث الرسول صلى الله عليه وسلم السابق مناقشات أخرى بت فيها بالطريقة نفسها ، أى بالرؤيا . ولا يجرؤ أحد على مجادلة صاحب الرؤيا إذا كان ذائع الصيت فى العلم والورع

يفيد ما أشرت إليه فى بدء هذا الفصل أن بالقاهرة عدة علماء فى وقتنا الحاضر ، وأن بغيرها من المدن المصرية بعض العلماء الآخرين . ويعتبر الشيخ حسن العطار وهو شيخ الأزهر الآن[(١)] أحد مشاهير العلماء المعاصرين . وهو وإن يبلغ فى التوحيد والفقه مبلغ بعض معاصريه كالشيخ القويسنى خاصة ، ضليع فى الأدب . وهو مؤلف كتاب « الإنشاء » الذى يعتبر مجموعة فائقة من الرسائل العربية فى مختلف الموضوعات ، وضعها نموذجاً للأسلوب الإنشائى . وقد طبع هذا الكتاب فى مطبعة بولاق . وقد ذكرت اسم هذا المؤلف تنفيذاً لوعد قطعته على نفسى ، إذ طلب أن أنوه بمعرفتى له وأن أبين رأيى فى علمه ظناً أننى سأنشر فى بلدى أحاديث عن أهل القاهرة

(١) وقد توفى هذا الأديب الفاضل وقت كتابة هذا الكتاب

وقد اشتهر بحق الشيخ محمد شهاب بجودة أدبه ورقة شعره . وكان أنسه وذكاؤه يجذبان الأصدقاء إلى منزله كل مساء ، وكنت أحياناً أشترك فى مسراتهم . فكان الشيخ يستقبلنا فى غرفة صغيرة مريحة ، فيدخن كل منا شبكه ، وتقدم إلينا القهوة . وكان حديث الشيخ أعذب ما يقدم لنا . وفى القاهرة أيضاً علماء يتمتعون بشهرة عظيمة فى اللغة والشعر . ويستحق الشيخ عبد الرحمن الجبرتى ــ وهو من مؤلفى القاهرة المتأخرين ــ أن يشار إليه بصفة خاصة ، إذ أنه وضع تاريخاً جليلاً لحوادث مصر منذ القرن الثانى عشر للهجرة[1] . وقد توفى عام ١٨٢٥ أو ١٨٢٦ عقب قدومى القاهرة لأول مرة . وتنتمى أسرة الشيخ الجبرتى إلى الجبرت فى جنوب شرق الحبشة على شاطئ المحيط ، ويدين أهل جبرت بالإسلام ، ولهم رواق فى الأزهر ، ومثل ذلك فى مكة ، وفى المدينة .

* * *

لم يعد الشعر الجاهلى يفهم على حقيقته فى القرنين أو الثلاثة الأولى للهجرة لغرابة ألفاظه ، فمن باب أولى لا يجد الآن من يستطيع شرح هذه النصوص القديمة . غير أن هناك فى مصر من تضلع من علوم الصرف والنحو والبلاغة والأدب بالرغم من سيادة التوحيد والفقه فى هذا البلد . وقلما يعرف علماء مصر تاريخ بلدهم معرفة جيدة ، وأقل من ذلك معرفتهم بتاريخ الأمم الأخرى . أما الذين لا يحترفون الأدب من سواد الشعب فمحصولهم الأدبى منحط النوع . ويجيد الكثير من التجار الأغنياء فن القراءة والكتابة ، ولكن قل من يخصص أكثر وقته لدراسة الأدب . ويعتبر من حفظ القرآن جميعه أو أكثره ، واستطاع أن يتلو قصيدتين أو ثلاثاً ، أو يضمن الحديث بعض الأمثال ، رجلاً كامل الثقافة . وهناك تجار فى القاهرة أميون فيلجأون إلى أصدقائهم ليكتبوا لهم حساباتهم ورسائلهم . إلا أن هؤلاء التجار لا يهتمون بذلك على العموم ، فيقومون بعمليات حسابية ذهنية معقدة بسرعة فائقة ودقة مدهشة .

ويخطئ المسيحيون فى أوربا فى اعتقادهم أن المسلمين أعداء العلم على اختلاف أنواعه تقريباً . والحقيقة أن العلم فى الوقت الحاضر تحده حدود ضيقة ، فقل من يدرس الطب والكيمياء والرياضيات وعلم الفلك . وتجد أغلب الأطباء والجراحين المصريين حلاقين يجهلون العلم الذى يباشرونه جهلاً مضراً وتنقصهم المهارة فيما يمارسونه .

ويرجع بعض ذلك إلى تحريم الدين تشريح الجسد . إلا أن بعض المصريين الشبان يتلقون الآن دراسة أوربية فى الطب والتشريح والجراحة وعلوم أخرى لخدمة الحكومة . وكثيراً ما يرفض المرضى من المصريين كل مساعدة طبية متوكلين على العناية الإلهية أو معتمدين على السحر . ويدرس فى هذا البلد علم تحويل المعادن أكثر من دراسة علم الكيمياء الصرف ، وعلم التنجيم أكثر من علم الفلك . ولا يستعمل فى مصر من آلات الفلك غير الأسطرلاب والربع المقنطر Quadrant تقريباً ويندر أن تشاهد مرصدة[1] (تلسكوب) هنا . وقلما تستعمل الإبرة المغناطيسية (البوصلة) إلا لمعرفة القبلة . ويصنع لهذا الغرض فى دمياط بوصلة صغيرة ملائمة (تسمى قبلية) تبين اتجاه القبلة فى المدن الكبيرة للبلاد المختلفة . وأغلب المدن بها مزاول تبين الوقت ظهراً وعصراً فى أماكن متعددة وفصول مختلفة . ويجهل هؤلاء الذين يدعون علم الفلك الأصول العلمية الصحيحة ويعتبرون القول بدوران الأرض حول الشمس إلحاداً مطلقاً ؛ ويستخدمون علم النجوم فى حساب التقويم السنوى

« يتبع » عدلى طاهر نور

(١) ويوافق بدء القرن الثانى عشر للهجرة اليوم السادس عشر أو السابع عشر من أكتوبر سنة ١٦٨٨ ميلادية .

(١) هذا ما قرره المجمع اللغوى . أنظر مجلة مجمع فؤاد الاول للغة العربية الجزء الرابع . « المترجم »



في الأدب التركي

من أنباء اسطنبول أن الدكتور « طازر » سكرتير حزب الشعب اقترح تأليف هيئة تحكيم تختار من الكتاب والأساتذة الأتراك برياسة السيد خالد ضياء أوشكيلجيل لاختيار أحسن رواية تركية نشرت خلال العشرين سنة الماضية ، فوقع اختيارهم على رواية « سنيكلي البقال » للسيدة خالدة أديب ، وفازت بالجائزة الثانية رواية « يابان » للكاتب « كياسمانجلو » وفازت بالجائزة الثالثة رواية « فهيم بك » للكاتب السيد حيدر .

وتعد السيدة خالدة أديب من أنبغ من جمعوا الثقافتين السكسونية والتركية ، وقد ولدت في اسطنبول من أسرة تركية عريقة في النسب ، وقضت طفولتها في الأناضول ، ثم تلقت دراستها في الكلية الأمريكية للبنات القائمة على ضفاف البسفور

وقامت بعد ذلك بدور هام في الحرب الوطنية التي حدثت في ١٩١٨ — ١٩٢٢ وعملت في الجيش برتبة نفر في فرقة النساء المتطوعات ، وقد رقاها الغازي أتاتورك نفسه إلى رتبة جاويش في ميدان القتال لما أبدته من ضروب الشجاعة والإقدام .

وفي سنة ١٩٣٠ رحلت إلى أمريكا حيث ترجمت عدداً من كتبها ورواياتها إلى الإنكليزية ، فصادفت رواجاً واستحساناً عظيمين . ثم ألقت سلسلة محاضرات في جامعة كولومبيا بنيويورك عن « الآراء الحديثة السائدة في الشرق الأدنى » .

ورجعت إلى تركيا ، ثم عينت قبل أربع سنوات أستاذة للأدب الإنكليزي في جامعة اسطنبول ، ولا تزال تقوم بالتدريس في الجامعة . وهي تعد من أشهر وأحب النساء في تركيا ، وهي خير مثل لمزج الثقافتين السكسونية والتركية . فهي جريئة لا تتردد في قبول التبعات وتحملها مهما بلغت . فإذا رأيتها رأيت سيدة وقورة هادئة غير هيابة . وهي خير مثال للأم الحنون وربة الدار الكاملة ؛ ولم يمنعها ذلك كله من أن تحمل السلاح وتخوض المعارك حينما أهاب بها الداعي إلى الدفاع عن بلادها ، والنضال عن حريتها واستقلالها . وهي وإن كانت كاملة الأنوثة والرقة لم يمنعها ذلك كله من أن تكون مقدامة لا تهاب ، وفيها ما فيها من سحر الشرقيات وجاذبيتهن

إلى الدكتور زكي مبارك

قرأت مقالتك الحافلة « تحت السدرة » ، وأهنئك بتصوير أحاديث الضمير ، هذا التصوير الرائع الطريف ؛ ولكني أستميحك في أن أقول لك : لقد ظلمت في هذا التصوير أبانا « آدم » ، فصورته خاضعاً مستكيناً لعبقرية الجمال وأنا أزعم بأن ما حدث من « آدم » من التعرض لمكاره الأكل من « الشجرة » ، لم يكن الموحى به جسد « حواء » وحده ؛ ولكنني أتهم معه ما ركب في رجولة « آدم » من حب المخاطرة والاستطلاع ، والتلذذ باقتحام المكاره والصعاب !

ولا أكاد أسيغ أن « آدم » قد تلقى أمر الله باجتناب « الشجرة » فلم تحدثه نفسه ، ولم يتحدث هو إلى نفسه في هذا الأمر ، حتى أتت « حواء » فطوته بدلالها وفتنة جمالها دفعة واحدة ، وذهبت به إلى حيث أرادت . وأعتقد أنه لو رزقها الله الصبر ولم تتحدث إلى « آدم » لتحدث هو إليها ، ولفعل ما كانت تريد . وليس معنى هذا أن أعفي الأثر الذي أحدثته « حواء » ، ولكنني لا أنسب لجمالها كل شيء !

صحيح أن الناحية الأدبية تفقد كثيراً من حرارتها على هذا الوضع ، ولكن هذا خير لنا من أن نعطي « حواء » الجديدة الفاتنة مادة جديدة تتطاول بها على « آدم » الحديث

فما رأيك يا دكتور في أن نلقي على كاهل كل منهما تبعته في الخروج من الجنة لتصطرع الأهواء على هذه الأرض ولتحقق لله حكمة تحار في فهمها العقول والأفهام؟

أحمد رضوان حامد

آثار من أولية الشعر

للباحث العالم الأستاذ عبد المتعال الصعيدي آراء في الأدب سديدة ، ونظرات في النقد والتحليل عميقة ، وقد كتب في عدد « الرسالة » رقم ٤٥٤ مقالاً بالعنوان الذي يظل كلمتي هذه رأى فيه أن قصيدة عبيد بن الأبرص التي مطلعها :

أقفر من أهله ملحوب   فالقطبيات فالذنوب

تمثل أقدمية الشعر خير تمثيل ؛ إذ لا يستقيم لها وزن ، ولا تضمها قافية ، ومع تقديري لآراء الأستاذ أخالفه في ذلك الحكم لما يأتي :

١ — عاصر عبيد امرأ القيس المعقود له لواء زعامة الشعر ، فاضطراب قصيدة شاعر في عصر بلغ الشعر فيه آية الجودة لا يتخذ دليلاً على سنة التطور والارتقاء ، وإلا لصح لنا أن نتخذ

من محاولات المبتدئين فى عصرنا هذا دليلاً ،كذلك على كيفية نشأة الشعر الأولى ، وأحسب الأستاذ يرفضه رفضاً جازماً

٢ - سبق عبيدا شعراء كُثر خلا شعرهم من كل اضطراب فى الوزن والقافية من أمثال دويد بن زيد القضاعى والأفوه الأودى من أصحاب القطعات ، والمهلهل بن ربيعة والحرث بن عباد من أصحاب الطولات

٣ — لم يكن عبيد شاعر الطبيعة، فشارحو المعلقات يروون عنه « أن أحد بنى ثعلبة هجاه مقذعاً فابتهل عبيد إلى الله بقوله : « اللهم إن كان هذا ظلمنى ورمانى بالبهتان فأدلنى منه » ، ثم نام ولم يكن قبل ذلك يقول شعراً فأتاه آت فى المنام بكبة من شعر حتى ألقاها فى فيه فقام ترتجز هاجيا بنى ثعلبة » الشك فى القصة لا يرقى إلى أنه لم يكن شاعراً سليقياً ، وهـذا الجاحظ يستضئل آثاره فيقول : « إن عبيدا وطرفة دون ما يقال عنهما إن كان شعرهما ما فى يد الناس فقط »

٤ — اتخاذ عبيد وعلقمة دليلاً على تطور الشعر يقرب نشأة الشعر عند العرب ويظهرهم أمة جامدة العواطف متحجرة المشاعر آماداً طويلة وهو مالم يزعمه غير العربى، فضلاً عن العربى النافح عنها

٥ — لأن نتخذ عدم قيام دليل أدبى لتطور الشعر حجة على أقدميته وبعد نشأته أشرف للغة العربيـة ودواتها من تلمس أدلة لا تقوم على دعائم قوية ؛ لأنه ليس هناك من يشك فى أن الشعر ككل أثر أدبى أو علمى مرت عليه أحقاب وآماد حبا فيها وخطا ينهض حيناً ويكبوا حيناً حتى نما واستحصد وصار فناً له قواعد وقوانين ، وابن خذام الذى ورد فى قول امرىء القيس :

عوجاً على الطلل المحيل لعلنا نبكى الديار كما بكى ابن خذام

شخصية مجهولة للقدامى لإيغالها فى البعد

٦ — لا يغض من قيمة الأدب الجاهلى أنه لم يقيد ؛ لأن الأمة كانت تحيا حيـاة فطرية فهى تعتمد فى أدبها على حوافظها وصدورها لا على كتبها ومدوناتها ، والشاكون فى الشعر الجاهلى لا يشكون فيه جملة وإنما يساورهم الشك فى بعضه ، ولعل قصيدة عبيد هذه من دعائم شكهم ؛ لأنهم يرون ما فيها من اختلال واختلاط عبثاً من الرواة ، وسخرية بالقدامى

تلك نظرة عابرة أرجو أن يعيرها الأسـتاذ لفتةً فاحصة ؛ ليتبين ما فيها من سداد أرجوه . وله من الأدب وأبنائه التقدير والإكبار

عبد العظيم على قناوى

ما قول الأستاذ لطفى جمعة ؟

قرأت فى جريدة « منـبر الشرق » الزهراء فى عدد ٦ مارس عام ١٩٤٢ مقالة بعنوان : « على العزبى يرو بمواكب الحياة » للأسـتاذ محمد لطفى جمعة المحامى فوجدتها مأخوذة بالنص فى كثير من مواضعها من كتاب « معالم تاريخ العصور الوسطى » المقرر على السنة الثانية الثانوية هـذا العام لمؤلفيه محمد رفعت بك والأستاذ محمد أحمد حسونة ، فقول الأستاذ لطفى مثلاً :

(فـكانت روما عاصمة الأمبراطورية ترسل إلى كل جهة من يغرس فيها حضارتها بمجرد استعداد البلاد المفتوحة لقبولها ، فمتى تم فتح إقليم بدأ صبغه بالصبغة الرومانية ، وإذا أخلد أهله للسكينة منحوا حقوقاً مدنية تشابه حقوق أهل روما أنفسهم ، حتى أنه على الرغم من الفروق التى كانت تفصل كل ولاية عن الأخرى شاعت بين الجميع مبادىء التهذيب الرومانى الخ) مأخوذ بالنص من الفصل الأول صفحة «١» من هذا الـكتاب ، وقوله أيضاً :

(وكان أبناء الأشراف ينضمون من سن السابعة إلى فارس مشهور ينشأون معه ويقومون بخدمته ويتعلمون منه ضروب القتال وآداب المائدة والحديث والاستقبال ويصحبونه فى الصيد والحرب وكان السواد الأعظم من القائمين بفلح الأرض وغيره من الأعمال من طبقة الأقنان أو رقيق الأرض وكانوا مرتبطين بالأرض ملزمين بالعمل فى أرض السيد الخاصة نحو نصف الأسبوع الخ) مأخوذ بالنص من الفصل الرابع صفحة « ١٢٨ » من نفس الـكتاب ، كما أن قوله أيضاً :

(وكان العرب يعتمدون على الخيل فى حربهم فلما قابلهم شارل مارتل فى موقعة « تور » عام ٧٢٢ أعجب بمـا للخيل من الصفات الحربية فـكون فرقاً من الفرسان على النسق العربى ومن ثم انتشر النظام فى أوربا كلها الخ) مأخوذ بالنص أيضاً من الفصل الرابع صفحة «١٢٧» من نفس الـكتاب . فإذا كان مراد الأستاذ الاستشهاد بما نقله من الـكتاب فلماذا جاء به فى سياق كلامه دون أن يضعه بين قوسين علامة التضمين ؟ ولماذا لم يذكر المصدر ؟ هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى ما دخل المرحوم على العزبى شاعر دمياط فى تاريخ العصور الوسطى وأحوالها الاجتماعية وهو رجل عاش ومات فى القرن العشرين ؟ وما دخل عهد الأقطاع وأحواله فى « دراسة تحليلية » الشاعر ؟ وما فائدة إقحام العصور الذهبية للأمم فى مجال ذكرى أديب ؟

كمال السيد شتات



النغم الضـــائع !

بقلم F. MATANIA

[قصة من أدب الحيـاة الواقعى ، طغت فيها التقاليد على قلب فنان عبقرى]

للأديب حسين محمود البشبيشى

في يوم من أيام عام ١٧١٧م أضاءته شمس الجنوب اللامعة الباسمة ، ترنحت عربة رثة مترِبة خلال مدخل كابيونيا أحد مداخل نابلى ، وقد جلس فى داخلها غلام فى عامه الثامن ، تحمل الرحلة المرهقة القاسية وحيداً من قرية جيزى إلى نابلى . وما كان معه من سند غير بعض كتب التوصية لنفر من البيوتات النابولية الرفيعة .

كان هذا الغلام هو « جيامباتيسنا بورجوليزى »

ولما نزل من العربة تعباً غريباً تائهاً فى حياة العاصمة الدوارة الصاخبة ، وضعه جنود الحراسة فى عربة عامة ، وأرسلوا به إلى أحد العناوين التى على كتبه .

تصور طفلاً صغيراً ضعيفاً كصاحبنا خرج لأول مرة من مجتمعه الصغير الحقير فى قرية جيزى بالقرب من أنكونا حيث توافقت الأزقة المهجورة وملالة الوجود ، وتمازجت حقارة الفكرة وشفافية الحياة ، إلى نابلى هذه المدينة الرحبة الصاخبة الماجنة العابثة الغارقة فى النور وشهوته ، الضاربة فى كل فن وكل غريب . . .

تصوره وقد تعلق الأطفال حول العربة كل يريد الركوب ، والحوانيت تبين وتغيب ، والمطاعم تقدم صحاف المكرونة المهودة ليلاً ونهاراً فى ضجة ومرح ، وهناءة وفرح ، والجمهور التائه كسرب من الحمام ، الصاخب كقطيع من الأغنام ، يزيد فى صخبه ، ويمعن فى دورانه ، والأسواق متنوعة : أسواق للسمك وأسواق للفاكهة وأسواق للخضر تموج فى ضجتها وشدتها ، وتضطرب فى تقلبها وحركتها ، كل ذلك بين أصوات للباعة ترتفع جشاء جوفاء لا انسجام فيها ولا اتزان . . .

مسكين « جيامباتيسنا » ! هل كان فى حيرته يدور فى خلده ، إذ ذاك ، أن عبقريته ستتوجه يوماً ما فى هذه المدينة الدوارة المضطربة بوسائل الفرح ، المتقلبة فى مظاهر الانطلاق الروحى والحسى ! !

لقد ولد فى أسرة هى أغنى فى عقليتها وتعليمها منها فى ماليتها وتقاليدها ، وأعظم فى ميولها وأحاسيسها منها فى أصلها وأعراقها . ورأت فيه عائلته عن حق ميلاً إلى النبوغ الموسيقى ، يتألق أنغاماً روحية تشمها روحه الباسمة وحركاته الراتبة ولفتاته الأنيقة . فأرسلته إلى « نابلى » ليأخذ هناك من نبعها الدافق ، ويتعيش فيما بعد منها . ودخل بالتوصية والالتفات والرعاية (المعهد الموسيقى العظيم) حيث تعلم العزف على القيثارة تحت إرشاد الفنان القديم « ديماتيس » ، فكان له من طبعه الفنى القادر ، وزوح أستاذه الساحر ، أكبر باعث ألهب فيه حيوية الفن وأقباسه . فصقل روحه بكل جديد من الصور ، وخلع على قلبه كل فاتن من الأحاسيس ، وإن ما كان يتوقعه هذا الفنان « ديماتيس » لتلميذه المتألق المتوثب من مجد دفعه إلى أن أثر على الشاعر العظيم « جريكو » الذى اهتم بهذه العبقرية المتألقة المتطلقة التى لم تزل بعد فى أكمامها .

ووجد « برجوليزى » ككل فنان حديث يشعر فى قرارة نفسه بحيوية تريد أن تفيض ، وأقباس تتطلع للظهور ، وألوان تتواثب لتتنسم الحياة ؛ وجد فناننا « برجوليزى » من القيود الموسيقية الرثة أغلالاً تجعل أجنحة فنه تحلق فى سماء محدودة وأجواء مقيدة ، وآفاق لا تشبع الرغبة الجامحة والنزعة الطافرة . وضاق صبره بتلك القيود ولكنه أكره نفسه عليها ! حتى غادر مع أستاذه المعهد العظيم فى عام ١٧٢٦ ليجنى حراً طليقاً ما يريده

من أزاهير ، فتفتحت أمامه مبكرة ، وتحققت أمانيه ؛ فلحن على حداثته قطعاً من الأوبرا ونشيداً رائعاً فاتناً ساحراً هو (سان جيجليلمو) مما كان له مكانة سامية وشهرة عظيمة حتى في هذا الوسط الفني

ورحبت به العائلات الرفيعة التي كان عطفها ورعايتها قبلة فنانى القرن الثامن عشر

ولا عجب أن رحبت به والتفتت إليه ، وهامت بألحانه الساحرة ، وما تريد سوى أن يلتف حولها الفنانون . أما هو فقد جلت أثوابه الجديدة الأنيقة من ملامحه الدقيقة الوسيمة ، وقد عكس وجهه الوضيء الغنى روحه الشاعرة الفتية العامرة بالحساسية !

ووجد ثمرة الإلهام أمامه ناضجة

فقد كان ملك نابلى المتحمس لتشجيع فنانى عصره ملاذاً للعلماء والمهندسين والرسامين والموسيقيين ، وأصبحت نابلى إذ ذاك فى أوج مجدها الفنى ، إذ كانت مركزاً منفرداً للمدنية ، انبثق منها إلهام حى سام متألق لجامياتيستا

لقد كانت المدينة غنية بفنانيها حقاً . لقد انطفأت شعلة حياة (كوريللى)[1] و (ولى)[2] ولكن الجمرة التى تركاها تأججت من جديد عند ما نفخ فيها سحر (سكارلاتى)[3] ولما قضى هذا الفنان أيضاً لم يكن إلا لفنان قادر سامى العبقرية ، متوقد الروح ، بعيد مدى الآمال ، أن يحفظ عظمتها وينهض بها

فكان برجوليزى فتاناً ولم يزل بعد فى العشرين وارثاً ملهماً فذاً لهذا الإرث السامى من الفن العظيم . ما أسعده وما أتم نعمة الفن عليه ! لقد بلغ المجد الذى تطلع إليه . لقد سطع عليه القبس الروحى الذى طالما عناه . لقد أصبح الفنان القادر الساحر

ثم خفق فؤاده يوماً ما شديداً عنيفاً عند ما دعى إلى بيت « سبينللى » النبيل الكبير

(١) و (٢) من أعلام الموسيقى فى هذا العصر

(٣) وارث الفن بعدهما وسرعان ما أفل نجمه

ثم خفق فؤاده مرة أخرى ، ولكنه كان فى هذه المرة أشد خفقاناً ، حينما انتهت مراسيم التقديم ، ووجد نفسه منحنياً أمام غيداء فاتنة . لقد تنازلت ابنة أكبر البيوتات النابولية ارستقراطية عن كبرياء عائلتها ، رائعة دقيقة ساحرة ، تلك هى ماريا سبينللى التى نظرت إلى الشاب الفنان بورجليزى ، وألهبت شرارة حبها نار الوجد فى حناياه ! . . . وسواء أكان ذلك لفتنة فيه أم لسحر فى موسيقاه فقد باحت بسر الجوى أعين لطاف تجاوبتها عيون ! وصفق قلب فأسرع إليه قلب . . . وهكذا فاض روح الحب من النفس الجميلة والنفس الفنانة

ولكن وا أسفاه ! لم يكن للقصيدة الأبدية من تمام . لقد كانا فى ميعة الشباب وفتنته ، يتدفق فيهما الشعور بروح الجمال ، وتفيض أعينهما إحساساً به ، كما كان هناك على آخر ما يصل إليه البصر من نافذة القصر حيث يتصاعد عبير البرتقال قبور ، ترفع نصبها فى جنون تحت شمس الظهر المرهقة الحارة . أجل لقد كانا فى ميعة الشباب ، ولكن كان هنالك قبور بالقرب من عش غرامهما !

فلا عجب أن دار قدرهما قوياً قاهراً فعصف بهما عصفاً

تناثرت هنا وهناك الأحاديث ! وعرى أرستقراطيو القوم وجوم ودهش . يا عجباً ! ابن الشعب ذلك الحقير ، يتطلع إلى أن يختلط دمه الأحمر الشديد الحمرة بدم أسرة سبينللى الأزرق الشديد الزرقة ! لتكن عبقريته ما هى ، ليكن قدره ما يكون ، ليكن مستقبله ما سيكون ، ليكن كل شيء

لقد كانوا حمقى ! وما كانوا غير ذلك . فإن من اتحاد الأحمر والأزرق يتكون ذلك اللون البنفسجى الرائع الذى يعلوها ! تلك هى السماء

ولقد كانت الفكرة ، بل التفكير فيها أمراً حراماً . . . ابن الشعب يتطلع إلى بنت البيوتات الرفيعة !

ثار أهلها كل الثورة ، وحقدوا على الفنان كل الحقد ، وبرموا به كل التبرم . وأما أشياعهم من ذوى التقاليد والأشراف

ولهم فتيات قد يتطلع إلى إحداهن يوماً ما فنان من أبناء الشعب فقد شاركوهم الأمر، وتنكروا لفناننا برجوليزى

وهكذا تعبث الشهوات الزائلة بجلال الفن، وتعبث الأغراض الدنيئة بجلال الحب، وتفسد التقاليد العتيقة انسجام روحين؛ فما أحقر الإنسان إذا انطلقت فيه نوازع النفس الترابية وغطت على بصره، فظن أن الحياة مظاهر وتقاليد؛ وما كانت لتكون كذلك والزهر يعانقه الشوك وبقاسمه أغصان دوحته! أوصدت الأبواب المسرحية، وحبست الوجوه الباسمة، وولت الأقدام المقبلة، وأغلقت... وأغلقت تلك الخميلة التي طالما عزف فيها لماريا، وألهمته فيها ماريا

وحجبت عن نظراته الوالهة ابنة أسرة سبينللى

ولم يك يصل إليها إلا على جناحي أنشودة خالدة، وفى ثنايا نسمة عابرة، وبين ألفاف أمنية مستعرة. وثقلت به الحياة وثقل بها فانغمس في ألحانه الباكية، وترانيمه الحزينة، عساها أن تكون له عن دنياه سلوى، كما هي عن جواه

وتدفقت أمامه الشهرة الفارغة الجوفاء. وسجدت نابولى لعبقريته حين قدم لها في عام ١٧٣٠ قطعته الخالدة بعد محاتها بأعجوبة من زلزال مروع. ولقد كانت قطعته هذه فريدة حقاً في نغماتها، وحيدة حقاً في ألحانها، فذة حقاً في معانيها، منقطعة حقاً في روعتها. ولقد أدرت عليه كل ما ابتغاه في فجر أيامه، وتمناه في متنفس عمره. أدرت عليه كل شيء ليضعه تحت قدمى ماريا، ماريا الفاتنة، ماريا ملهمته الفن الساحر القادر. ولكنها قدماها كانتا مغلولتين بغل من حديد التقاليد

لقد كان محرماً عليها هناك في سجنها الذهبي حتى النطق باسم برجوليزى. فماتت بسمتها المرحة على شفتيها، وانطفأت شعلة في عينيها كانت متألقة باسمة. وجاءها إخوتها الثلاثة يوماً، وقد أخذ الغضب منهم كل مأخذ، وتطاير شرر التقاليد من أعينهم، وأجهر بوق الأرستقراطية أصواتهم، فتدافعوا إلى خدرها، وهددوها وسيوفهم مشروعة بأنها إن لم تتخذ لها بعلاً كفئاً لها استقر السيف في قلب هذا الموسيقى الحقير! فداعبتهم بدورها ولوحت لهم بالقانون منتقياً لحبيبها. فضحكوا؛ فهم حماة الشرف السبينللى؛ ولم تك ليد أن تمتد إليهم إذ ذاك لا أن تمسهم.

لقد كان لهم أن يضحكوا؛ فلم يك قولهم إلا حقاً، فما نابلى إذ ذاك إلا مدينة الأشراف؛ ولقد كانوا هم سادة الأشراف!!

ومرت أيام ومضت ليال وجاء إخوتها برجل من أسرة كرافا أثقلته حليه، وجللته عظمته، فأخفت رأسه الفارغ، وكست روحه العارية

لقد كان غنياً أرستقراطياً لا شبهة في ذلك، جاء به إخوتها لترضى به زوجاً؛ ولكن لم تكن ماريا لتفتنها الثروة أو تأخذها الأبهة، وما كانت لتريد رجلاً أياً كان... لقد كانت تريد شيئاً غير هذا! شيئاً أجمل من هذا. فخرج الكرافى بوجهه المصقول، وجواهره اللامعة، وتقاليده الرائعة، وانحنى له إخوتها مودعين وقد وضع يده في جيبه يتحسس خاتمه الذي لم يقدر له بعد أن يوضع في مكانه

وأمضت ماريا برفضها الكرافى أمراً بالقضاء على برجوليزى. ولم تك هناك إلا طريقة واحدة لنقضه. لم يك هناك إلا أن تهب نفسها لله!

فوافق إخوتها. ولأمر ماقرروا أن يرأس برجوليزى العازفين في حفل ترهبها! يا عجباً! برجوليزى يقدم قلبه لله!

وفى الحادى عشر من مارس عام ١٧٣٤ في كنيسة سانتاشيرا رأس برجوليزى العازفين وبدأ الحفل فلوح بعصاه يفتتح قبر قلبه فكان لنقراته على حامل الموسيقى صدى، كأنما هو يؤذن برفع الستار عن إحدى المآسى

ورفع الستار عن مأساة مروعة: عذراء تترهب مقدمة شبابها، جمالها، حياتها، قلبها، إلى نسيج حسن لا يرققه ولا يلطفه إلا الإيمان بالله

مأساة أعمق من أن تصل إليها الألفاظ والجمل. لقد كان الرهبان يصيحون: «مرحباً بعروس البيعة»، ورنت أصواتهم في كل أذن سمعتهم. أما أذن العروس، وأما أذن رئيس العازفين فقد سمعتا ماريا كل نغمة تصيح: وداعاً. وداعاً رمى بها الأفق، وداعاً ابتهل بها الرهبان. وداعاً نطق بها دخان البخور وقد صعد يتلوى في زرقته إلى الله. إنه لم يترنم في صعوده برسالة حبيب إلى السماء، بل لقد كان يصيح وداعاً ويتلوى لرسالته من الألم! وتخافتت الأصوات، وسكنت الأقدام ووقف برجوليز وحيداً

مرفوع الرأس مدبراً بعصاه أنغام العازفين وحركاتهم

لقد كان جديراً حقاً ذلك الحفل بأن يضع على رأسه أكاليل الغار ، ولكنه كان مأخوذاً مرعوباً لم يدر شيئاً ، ووقف يحترق فى لهبه ، لقد كان فريسة لأساه ، هشيما لنار جواه . وبكاها برجوليزى إلى العالم ولم تزل حية ، لم يبك « الأخت فكتوريا » كما نادوها فى الدير ، بل بكى الحبيبة ماريا . لقد بكاها وهى فى كهفها الضيق ولا من يسمع أناتها . إنك لتقرأ مأساتها كما قرأها من قبلك ، وكما سيطالعها إلى الأبد الكثيرون فى دمعته المحرقة فى دمعته الصارخة « Stabat Mater » ولا عجب أن كانت معجزة فلم يك أبداً فؤاد إنسان ذاك الذى لحنها ، ولكنه فؤاد من ذهب روحى خالص نقى صهرته الآلام الملتهبة

لم يتمكن الزمن أن يحدث معجزة النسيان ، ولكن لم يك غير الموت شافياً « لماريا » . فلم تمض سنة حتى تركت الأخت « فكتوريا » وراءها على الأرض صدفة مرمرية ورسالة إلى من وهبته قلبها . وحمل الرسالة إخوتها إلى « برجوليزى » فى روما ؛ فقد رحل من قبل عن « نابلى » مثوى أحلامه .

أما الرسالة فكانت : « دعوا برجوليزى يدير المحفل الأخير لروحى حتى يتاح لها أن تصعد إلى عالم الخلد على أجنحة الوجد »

فترك برجوليزى ما لم يتم من تأليفه ؛ وقد كاد أن يتم أوبراه الخالدة (الأولمبياد) ورحل سريعاً إلى « نابلى » ليجد هناك طعنة جديدة تنتظره ؛ فقد كانت القطعة التى سيدير عزفها ليست له ولكنها من تلحين « ليد » الموسيقى القديم . ويحهم ! ويحهم ! لم يريدوا حتى أن يكون له شرف تأليف لحن جنازتها . لم يريدوا إلا حرمانه حتى ذلك التأسى الفانى ، ولكنه فنان عاشق ، ولكنه محب واله ، ولكنه .. لحن فى سرعة جنونية يائسة قطعة كل نغم فيها فلذة من حنايا قلبه المضنى ، من ثنايا أساه البليغ

لم ير شيئاً سوى وجوه كالحة ساخرة مجرمة . وتخافتت الأصداء ، وسكنت الأقدام ، ولكن أقدام ماريا لم تخفق معها هذه المرة ، ولم تندمج فى الصف الذى اندمجت فيه من قبل فى حفل ترهبها . وها هى ذى فوق أكتاف الراهبات يحملن منها صدفتها المرمرية الهشة . وها هى ذى وخزات الآس الدامية ينقلها « برجوليزى » إلى لغة اللحن فى أنات طويلة علوية

ولما أوصد الباب للمرة الأخيرة ، وانتهت المراسيم الحزينة ، تقدم برجوليزى وهبط عن منصته ثم جمع أوراقه التى سطر فيها أساه واحدة فواحدة ، وعدها ببطء ودقة . ولما تأكد من أنه لم يترك منها شيئاً . تقدم إلى المذبح . ويحه ماذا يريد ؟ وعلى أحد الشموع الكبيرة التى قدمت حياتها قرباناً لتقىء ساحة بيت الله ، ألهبت ناراً فى عصارة قلبه ، فى هديته الأخيرة لماريا ملهمته ، ولما اسودت الأوراق ، وتلوت ثم ترامت فى ألم على الأرض ، صاح فى أسى وحرقة :

لقد لحنتها لماريا ! لماريا وحدها . إنها لحنى الأخير لموكبها . إنها سلامى الأخير لها ، ووداعى الأخير لروحها . ولن تكون إلا لها . دائماً أبداً لن تكون

***

ولم يعلم أحد هل كانت هذه البقايا المحترقة هى معجزة برجوليزى التى جمعها الراعى فى الصباح

لم يعلم أحد هل كانت هذه البقايا المرتعشة فى مهب الريح هى « النغم الضائع » أو الوتر المنزوع من قيثارة « جيامباتسنا »

ولم تنتظر ماريا طويلاً . فلم تمض سنة حتى كان جيامباتسنا برجوليزى فى قرية بوزولى ، قريباً من نابلى ، وقد امتنع عن العزف ، وامتنع عن الشكوى والنواح

وارتفع إلى السماء ليعزف لها هناك على قيثارة الروح الأناشيد التى وضعها لها على الأرض

حسين محمود البشبيشى

(طبعت بمطبعة الرسالة بشارع السلطان حسين — عابدين)